حسين عبد العليم

فصول من سيرة التراب والنمل

رواية

ميريت

تجليات أدبية

الأعمال الكامله
t.me/kotbhm

حسين عبد العليم

فصول من سيرة التراب والنمل

رواية

ميريت للنشر والمعلومات

القاهرة 2003

إهـــــداء

إلى روح ثروت فخرى وروح الهلالى السنوسى.

إلى مجدى أديب وخليل فاضل وسيد قناوى ووصفى وديع.

إلى جورج وفكرى وحَمَدْ ونعمان ومحمد طه.

ح. ع

* يا حسرةً على العباد.

سورة يس

* وحزن الرب أنه خلق الإنسان فى الأرض، وتأسف فى قلبه.

سفر التكوين

1998

الأبرار يضيئون كالشمس فى ملكوت أبيهم السماوى.

انتقل إلى الأمجاد السماوية الدكتور عزيز بشرى فانوس، ابن المرحوم بشرى فانوس تاجر العسل بالفيوم، وزوج المرحومة عايدة سناده ابنة الخواجة سناده مهاود من أعيان جرجا بسوهاج، ووالد فؤاد طبيب القلب بمستشفى الفيوم العام، وفاروق المهندس بلندن، وشقيق المرحوم المهندس كمال، وعم الدكتورة أوديت طبيبة الأطفال، وابن عم الدكتور محسن سعد أخصائى الأشعة، وابن خالة العقيد رشدى بديع بالقوات المسلحة، وعم.....

والدي الحبيب: الحياة بعدك لا طعم لها، تركتنى وحيداً والحزن يملأ قلبى وروحى، آثارك باقية تذكرّنى بك دائماً، عزائى أنك فى السماء مع المسيح وذلك أفضل جداً، سأعيش مع ذكراك إلى أن نلتقى.

ابنك البار

فؤاد

1982

التخصص فى الأعمال المنحطّة خرافة.

انتفض الدكتور عزيز قائماً من مكانه- وكأنه يريد أن ينتصر لتلك الفكرة التى انبثقت فى عقله فجأة، رغب فى إثبات أن العقل البشرى يمكن له هكذا دون تراكم خبرات- أن يبتكر ما يعجز عنه المتخصصون.

تخيّر جاكيت بيجامة قديم، أراد أن يمزقه فلم تطاوعه قواه، لقد كان الجاكيت قوياً.

أخذ يبحث عن المقص الصغير وسط الأشياء المبعثرة الغارقة فى التراب على منضدة السفرة: شرائط كاسيت.. عُلب أدوية منتهية الصلاحية.. سرنجات.. جهاز قياس الضغط.. عُلب سجائر بعضها فارغ والبعض الآخر ممتلئ والبعض الثالث بين بين.. عملات نقدية معدنية.. أجندات شركة ساندوز ذات الكعب الزمبركى الأبيض. ترمومترين.. نموذج تعليمى لقلب آدمى يمكن فكه وتركيبه.. كتب وجرائد.. نتائج تقويم من

شركات الأدوية وشركات التأمين والبنوك- فلم يجده.

وجد مشرطاً قديماً من ذلك النوع الذى كان يستعمله فى حجرة العمليات ، صدئ بعض الشىء، أمسك الجاكيت بفمه ومدّه على طول يده اليسرى، بيده اليمنى استخلص منه قطعة مستطيلة مناسبة .

أسرع إلى المطبخ، أغرق قطعة القماش فى المياه التى انسابت من الصنبور- ثم عصرها عصراً ليّناً بحيث تبقى بها بعض المياه، عاد إلى حجرة الصالون وبدأ عمله فى جدّ.

أخذ يمرر القماشة المبُللة على طقم الأوبيسون دون أن يضغط عليها بشدة، فوجئ بالنتيجة ، لقد علقت الأتربة بالقماشة المُبللة وتركت الطقم على غير حالته الأولى.

عندما انتهى الدكتور عزيز من المرور على الكنبة والأربعة كراسى كان قد أنهك تماماً وتسارعت أنفاسه، فكرّ ربّما كانت القماشة المُبللة ضارة بخشب الطقم المذهّب ، دبّ اليأس إلى قلبه ونفض يده من العملية كلها وجلس على أحد الكراسى يدخن سيجارة.

كان قد ترك القماشة المُبللة على رخامة المنضدة التى تتوسط الصالون، تلك القماشة ستجفّ فيما بعد وتتجلّد وستأخذ شكلاً عجيباً، وسيحتفظ بها فاروق للذكرى، ذكرى كفاح أبيه ضد التراب.

هدأت أنفاس الدكتور عزيز قليلاً، تذكّر أن معظم مشاحناته مع فؤاد فى السنوات القليلة الماضية- كان سببها

وجوب الدفاع ضد التراب والنمل.

ذات مرّة- عاد فؤاد من العيادة فى المساء، فأحضر صينية، صينية من تلك التى كانت أُمّه تصنع فيها المكرونة الباشاميل التى يحبها، ملأ الصينية حتى ربعها بالماء ووضع بداخلها فى المنتصف طبقاً يحتوى بعض العسل، وترك الصينية حتى الصباح فى وسط أرض المطبخ وهو يهز رأسه متمنياً أن يعرف بشكل عملى كيف سيستطيع النمل الوصول إلى طبق العسل وكيف سيجتاز الماء من حوله- أمنية ممزوجة ببعض الشماتة والكيد.

فى الصباح- وعندما فتح فؤاد عينيه أسرع داخلاً إلى المطبخ ، بُهت، فقد رأى آلاف من النمل عائم فى طبق العسل، بُهت أكثر، فقد رأى طابوراً من النمل يسير على الحائط ثم على السقف حتى وسط المطبخ، وعندما يجد النمل أنه قد أصبح فوق طبق العسل مباشرة يُلقى بنفسه فيه.

- ياسى فؤاد.. قلنا البيبسى والكولا فيهم سُعرات حرارية عالية.. وده هيخليك سمين وشكلك مش حلو وصّحتك مش كويسه.. ولو مش هامّك تطبقّ اللّى درسته فى كلية الطب.. إنت حُرّ.. إشرب.. بسّ بعد القزازه ما تخلص لازم تمصمصها بالميّه علشان النمل.. وتحطها فى الصندوق.

- حاضر.. حاضر

فاروق كان يفعل ذلك تلقائياً ولا يدع الدكتور عزيز يوجه إليه أية ملحوظة، كان يحرص أيضاً قبل الدخول إلى

وجوب الدفاع ضد التراب والنمل.

ذات مرّة- عاد فؤاد من العيادة فى المساء، فأحضر صينية، صينية من تلك التى كانت أُمّه تصنع فيها المكرونة الباشاميل التى يحبها، ملأ الصينية حتى ربعها بالماء ووضع بداخلها فى المنتصف طبقاً يحتوى بعض العسل، وترك الصينية حتى الصباح فى وسط أرض المطبخ وهو يهز رأسه متمنياً أن يعرف بشكل عملى كيف سيستطيع النمل الوصول إلى طبق العسل وكيف سيجتاز الماء من حوله- أمنية ممزوجة ببعض الشماتة والكيد.

فى الصباح- وعندما فتح فؤاد عينيه أسرع داخلاً إلى المطبخ ، بُهت، فقد رأى آلاف من النمل عائم فى طبق العسل، بُهت أكثر، فقد رأى طابوراً من النمل يسير على الحائط ثم على السقف حتى وسط المطبخ، وعندما يجد النمل أنه قد أصبح فوق طبق العسل مباشرة يُلقِى بنفسه فيه.

- ياسى فؤاد.. قلنا البيبسى والكولا فيهم سُعرات حرارية عالية.. وده هيخليك سمين وشكلك مش حلو وصّحتك مش كويسه.. ولو مش هامّك تطبقَ اللّى درسته فى كلية الطب.. إنت حُرّ.. إشرب.. بسّ بعد القزازه ما تخلص لازم تمصمصها بالميّه علشان النمل.. وتحطها فى الصندوق.

- حاضر.. حاضر

فاروق كان يفعل ذلك تلقائياً ولا يدع الدكتور عزيز يوجه إليه أية ملحوظة، كان يحرص أيضاً قبل الدخول إلى

الشقة على أن يحكّ حذائه جيداً فى المشاية اللوُف التى أمام الباب، بل وأكثر من ذلك كان يقف بالمرصاد لفؤاد فى لا مبالاته القاتلة.

علم الدكتور عزيز عنه تلك الصفة بالصدفة. عندما كان بالكاد يستيقظ من إحدى نومات العصر ليتأهب للذهاب للعيادة- وكان ما زال بين اليقظة والنوم، سَمَع فاروق يُقلّد طريقة حديثه متوجهاً بالكلام إلى فؤاد الذى كان قد فعل شيئاً ما.

- ياسى فؤاد.. أُمكم ماتت.. ومش عاوزين نجيب شغالين أحسن يسرقونا.. لازم إحنا نحافظ على حياتنا سليمة ونقاوم التراب والنمل.

وبقدر ما تكدّر الدكتور عزيز من أن فاروق يُقلده فى لهجة شبه ساخرة- فإن حفظ كلماته من قبل أولاده قد أثلج صدره، وعمل نفسه أنه لم يسمع شيئاً.

ولم يعلم الدكتور عزيز أبداً أن فاروق كفّ عن الوقوف بالمرصاد لتصرفات أخيه الخارجة عن المألوف والطبيعى لقوانين البيت- واكتفى بالسخرية الهادئة منه:

- أنت عايش فى هدوء وطمأنينه وسكينه وسلام.. نفسى أبقى زيّك ون ويك .. أو نلى ون ويك.

- طيب يا نصير العمال والطبقة الكادحة.

قام الدكتور عزيز من كرسى الصالون وجعل يتفقد أنحاء الشقة الواسعة الباردة المتربة ، ثم أخذ يضرب كفاً بكف.

– بييجى منين بس.. بييجى منين ، .. زىّ ما تكون فيه طاقه مفتوحة فى الشقة بيُبخ منها التراب والنمل.

استلقى الدكتور عزيز على السرير فانبعثت غيمة من الغبار المتكدس على الفراش، أخذ الدكتور يكح ويكح بشدة وهرع إلى المطبخ يغسل وجهه ورأسه وداخل أنفه بالمياه.

أخذ بعض الماء فى فمه ومطّ رقبته ونظر إلى أعلى يتغرغر ليزيل ما قد علق بحلقه من أتربه.

فجأة– أصابه الانزعاج الشديد وأخرج الماء من فمه دفعة واحدة– فقد رأى آلاف من النمل تتحرك فى صفوف تمتد من شقوق البلاط حتى أعلى الصنبور والسقف.

وجرى ليُحضر بخاخة المُبيد.

1977

الأبرار يضيئون كالشمس فى ملكوت أبيهم السماوى.

انتقلت إلى الأمجاد السماوية السيدة عايدة سناده مهاود، زوجة الدكتور عزيز بشرى فانوس، ووالدة الدكتور فؤاد والمهندس فاروق ، ابنة المرحوم الخواجة سناده مهاود من أعيان جرجا بسوهاج، وشقيقة المرحوم الوجيه جورج من أعيان جرجا..

ماما الحبيبة، يا عروس السماء، عزائى أنكِ مع القديسين وأنكِ انتقلتِ من الحياة الأرضية الرخيصة.. ابنك فؤاد.

فى الثامنة صباحاً توجه فاروق إلى مقر عمله ، أوضح لمساعديه كل شىء يختص بالعمل وأستأذن ومشى يتعثر فى أحزانه وعيونه المحمرّة تتقدمه رابطة عنقه السوداء.

يومها- اشتعلت الحماسة فى رؤوس العمّال، ما عاد يهمهم أنهم يبصقون دم أو يشعرون بالدوخة أو ينزفون مع البول، علَت تكتكة الجرارات وانطلقوا كالنحل إلى كافة أنحاء

المواقع يزرعون الأعمدة ويمدّون الأسلاك ويثبتون اللمبات وعواكس الضوء- يُمهدون لإدخال الكهرباء إلى القرى.

فى الواحدة ظهراً كان العمل قد أُنجز، فى الثانية كانت عربات الشركة وعمّالها ينتظرون أمام الكنيسة ، دخل مُساعدوه وبقى العمّال فى الخارج ، عندما خرج المهندس فاروق أحاطوه بالجلاليب الزرقاء والصفراء، ركبوا عرباتهم وجراراتهم وأوصلوا الفقيدة حتى مثواها الأخير فى الدير البعيد.

بعد أيام- عاد فؤاد إلى المنزل حاملاً صورة كبيرة مُغلّفة، فضّها فظهرت ابتسامة السيدة عايدة سناده مهاود فى زمن الصبا والجمال، على الزاوية اليمنى العُليا علّق شريطاً أسود وبخط جميل كتب أسفل الصورة فى منطقة فارغة: طوبى للودعاء والطيبون، ورسم صليباً، وعلق الصورة فى صدر الصالة.

كان قرار الدكتور عزيز حاسماً: هنقفل أوضتها على حاجتها.. لو فضلنا نشوف الحاجات دى حزننا هيزيد ويعمل علينا ضغوط نفسية ومش هنعرف نشتغل ولا نعيش.

استقل الدكتور عزيز بالحجرة الصغيرة ومارس حياته فيها ينام على الكنبة الأستوديو، أغلق التليفزيون نهائياً لدرجة أنهم لم يشاهدوا السادات أثناء إلقاء خطابه فى الكنيست الإسرائيلى- ولكن قرأوا نص الخطاب فى الجرائد وشاهدوا الصور.

تحديداً- من أيامها بدأ نظام البيت يختلّ بدأ التراب والنمل يُهاجمان كل شىء.

أجرى الدكتور عزيز اتصالات بزملاء له من الأطباء البيطريين واستعلم منهم عن أقوى البدُرات والمُذابات فى الماء التى تقتل النمل وتقطع دابره، وفي كل مرّة يستعمل الشيء الموصى به كان النمل ينقطع فعلاً لأسبوع أو على الأكثر لأسبوعين ثم يعاود سيرته الأولى.

ذهب الدكتور عزيز بنفسه إلى جمال الدين العطّار- وأحضر من عنده لفافات بها أشياء رائحتها لا تطاق لمقاومة النمل- وأيضاً نفس النتيجة.

قام برشرشة تنوة القهوة فى الأركان، وبدر السمسم خارج داير الشقة كما سمعهم يفعلون فى مصانع السُكّر والحلوى- ولم يتغيّر الحال، اتصل بموظفى وزارة الزراعة واستحصل على أدوية سائلة قادمة من أمريكا تضاف إلى ماء المسح- فلم يصل إلى شيء جديد.

ضحك الدكتور عزيز لدرجة أن الدموع طفرت من عينيه- عندما اقترح فؤاد بجدّية أن يقوموا بشراء حيوان آكل النمل- الذى كان قد رآه فى برنامج عالم الحيوان، وقال: طول عُمرك كده يا ابنى.. شخص غريب.. من زمن غير زمانا.

انبهر فؤاد أمام حكمة جازيه التى نطقت بها، كانت جازيه تنفق قوى ذراعيها المفتولين فى تنظيف البيت وإزالة الأتربة وفؤاد يلحظها حتى لا تسرق شيئاً، قال لها بسخرية : بُكرة .. بُكرة بالكتير هتلاقى التراب جِه.. وأكتر من الأول.

توقفت جازيه عن العمل تمسح عرقها الذى يَشُرّ :

التراب يا دكتور زىّ أى حاجة وحشه.. وعاوز حد يقف له باستمرار.. وانتوا بقى مش عاوزين.

صرخ فاروق من حجرته: الله.. دى بتفهم فلسفة يا فؤاد.. مقاومة التراب عندها بتعادل الحياة.

فتح فؤاد فمه فى بلاهة ولم يردّ.

أكمل فاروق: طبعاً.. تلاقيك مش فاهم حاجة.. ون ويك.. أو نلى ون ويك.

صاح فؤاد فى طفوليه: إنت اللى فاهم يا نصير العمّال.

تحسست جازيه ما بين ثدييها الضخمين بدلال، تعدّل أوضاع الرفايع المسروقة المدسوسة فيما بينهما.

1940

- يا كمال.. أنا عاوز اتجوّز.

قالها الدكتور عزيز لأخيه الأكبر ووجهه الدائرى يزداد حُمرة كما لو كان خجلاً من رغبته فى الحياة.

كانت قد مضت أكثر من عشرة أعوام على عمله كطبيب فى الفيوم- حُرٌّ فى أغلب الوقت، مرضاه من القرى المحيطة.

شفى على يديه الكثيرون، ووُلد على يديه مئات الأطفال الذين طاهرهم وعالجهم فيما بعد من القوب والإسهال والدوخة، ودسّ فى أوردتهم حقن الطرطير علاجاً للبلهارسيا، ثم انتهى به الأمر إلى أن يحضر أفراحهم ويولّد الزوجات الصغيرات اللائى كنّ أشبه بطفلات يلدن.

أكثر ما كان يضايق الدكتور عزيز فى ولادات الأمهات الصغيرات هذه أنهن كن يتألمن بشدة ويحزقن فيتدفق منهن البول والبراز ويلوث ملابسه- رغم وضعه لمريلة من

المشمع كانت أشبه بمريلة مطبخ.

لكن الدكتور عزيز كان صبوراً كالجمل، وقليلة جداً هى المرات التى استعمل فيها مقصه الطبى لتوسيع الفروج لتسهيل نزول المواليد- إذا كان يستعمله فى الحالات الضرورية جداً فقط، وفيما عدا ذلك كان يصطبر ويشجّع الواحدة منهن ويضحك معها إلى أن تلد بشكل طبيعى فى سلام.

قالتها أم محمود: مش آهو قبطى؟.. لكن راجل طيب بصحيح.. وسِنه باسم.. ناقصه بس يتجوّز.

ردّت فاطمة: أصلهم بيتجوزوا كبار .

كان طبيعياً أن يندهش كمال بعض الشىء، فكرة ما مجهولة المصدر كانت تعشش فى رأسه: الصغير عزيز طبيب.. طبيب نابه، طبيب فقط.. هو ليس كباقى البشر.. هو أشبه بالرهبان.

فكرّ كمال بينه وبين نفسه: إيه اللّى خلاّه يسأل فى الجواز؟.. دا سنه اثنين وتلاتين .

ابتلع كمال دهشته وغمغم: خير ما تفعل يا عزيز، وقال لنفسه : حقّه.

ولأن كمال كان مهندساً للمساحة بسوهاج فقد أشار عليه دون تردد بعائله حسنة الصيت فى جرجا، وأوضح أن عايده عليها الدور بين أخواتها.

وأضاف: هىّ صحيح دلوّعة وعصرية شوية.. لكن بنت محترمة.. وأبوها من الأعيان وصاحبى.. درست فى

الفرنسسيكان وعندها ييجى ستاشر أو سبعتاشر سنة.

- يا سيدى ما تدّقش.

انتهى الحديث ولم تنتهى تخيلات الدكتور عزيز، ولم تنتهى خطوات كمال العملية.

بعد شهرين كان قد تم عمل نصف إكليل، فى المرّة الأولى التى ألتقى فيها الدكتور عزيز مع عايده- وكانا يتمشيان فى إحدى مماشى الحديقة التى تحيط ببيت الخواجة سناده مهاود- لاحظ كم هى جميلة فى فستانها الأبيض وأنها تشبه الفراشة، ولاحظت هى أنه مضطرب . ومتوتر لا يجد ما يتحدث فيه.

فاجأها الدكتور عزيز: طبعاً تلاقيكى يا عايدة اتفجعت فيّ.. سنى كبير.. وقصيّر.. ومش وسيم.. وزيّك زىّ غيرك كنتى عاوزه تتجوّزى واحد زىّ جين كيلى.

إحمرّ وجه عايده ونظرت إلى الأرض قائلة :

- الشكل مش كل حاجة.

بحسّ عملى متوتر خانته اللياقة أضاف: بسّ انتى برضوا مش استر وليامز.

ازداد إحمرار وجه عايده وانزعجت من تلك الجليطة ، وبرغم أن الدكتور عزيز حاول معالجة الموقف مستدركاً: قصدى أجمل منها، إلاّ أنها ظلت تحملها له ولم تنسها لفترة طويلة.

فيما بعد وعند ما تزوجا وأنجبا أدركتْ عايدة كم هو

رجل حنون وطيب، فقط يتمتع بعملية حاسمة ويدلف إلى مراميه مباشرة دون أن يلف أو يدور.

بدأت الخطيبة عايدة تدُخل الدكتور عزيز إلى عالمها الخاص، أخرجت ما فى دولابها من ألبومات وكراريس،

عرضت عليه صور الأميرات فوزية وفايزة وفايقة شقيقات الملك فاروق المقصوصة من مجلة ملوّنة- بانبهار وحرص شديد كأنهن مثلها الأعلى.

أرته ألبوماً آخر خاصاً بمقالات وصور الزواج الملكى وعلقت : إن هوايتها هكذا بالمصادفة مثل الملكة فريدة- العزف على البيانو والرسم.

فى 1951 سوف يكتشف الدكتور عزيز أن زوجته عايدة عادت لهوايتها القديمة وجمعت صوراً ومقالات بمناسبة عيد الجلوس الملكى والزواج الملكى الثانى من ناريمان.

ردّ الدكتور عزيز بعملية تكاد تكون جارحة خفف منها بابتسامة ساخرة.

- الحمد لله.. لا عندى يخت.. ولا باهوى الطيران.. ولا باجمع عُملات قديمة.. ولا باصطاد بطّ.

- عارفة.. ولا ملك من أصله.

وانفجر كليهما فى الضحك.

فى جلسات تالية ازداد التقارب بين الخطيبين، صارحها الدكتور عزيز بأن له حسابات فى بنك كريدى ليونيه وبنك باركليز، حكى لها عن تسكعاته فى شارع الملكة نازلى

وشارع الملكة فريدة، الأزبكية وشارع إبراهيم باشا وميدان إسماعيل باشا ، كانت عايدة تشرد وتطلب منه وعوداً بأن يأخذها إلى كازينو صفيّة حلمى والأوبرا الملكية وكازينو بديعة وأن يعبرا سوياً كوبرى عباس مشياً.

انفجر الدكتور عزيز فى الضحك.

- يا ستىّ.. وسان سوسى قُدّام شقتى فى ميدان الجيزة.. دا غير إسكندرية التريانون وديليس واتنينيوس وهلمّ جرّا.. وكل ده بقى كوم وأوروبا لوحدها كوم تانى.

شعرت عايدة أن الكون يفتح ذراعية لها. انفجرت متساءلة: وهتدخلنى السينيمات ؟

- أكيد

هرعت عايدة إلى ألبوم محفوظ بعناية أحضرته وفتحته، كانت تتصدره صورة للوسيم محمد أفندى عبد الوهاب والممثلة سميرة خوصى وكتابة: فيلم الوردة البيضا، أعقب ذلك صورة نفس الوسيم مع الممثلة نجاة على فى فيلم دموع الحب، وفى فيلم يحيا الحب مع الممثلة ليلى مراد، وفى فيلم يوم سعيد مع الممثلة سميحة سميح.

ثم أحضرت كراسة كانت قد كتبت فيها بخطها المنمنم أغنيات: سجى الليل، وضحيتِ غرامى، وطول عمرى عايش لوحدى. واحبه مهما أشوف منه، ويا دنيا يا غرامى.

الغريب أنه بعد خمسة وعشرين عاماً من هذا التاريخ سوف يسلك فاروق عزيز ذات مسلك والدته، ويكتب أغانى عبد الوهاب فى كراسات مسطرّة بخطٍ منمّق: ناصر كلنا

وشارع الملكة فريدة، الأزبكية وشارع إبراهيم باشا وميدان إسماعيل باشا ، كانت عايدة تشرد وتطلب منه وعوداً بأن يأخذها إلى كازينو صفيّة حلمى والأوبرا الملكية وكازينو بديعة وأن يعبرا سوياً كوبرى عباس مشياً.

انفجر الدكتور عزيز فى الضحك.

- يا ستىّ.. وسان سوسى قُدّام شقتى فى ميدان الجيزة.. دا غير إسكندرية التريانون وديليس واتنينيوس وهلمّ جرّا.. وكل ده بقى كوم وأوروبا لوحدها كوم تانى.

شعرت عايدة أن الكون يفتح ذراعية لها. انفجرت متساءلة: وهتدخلنى السينيمات ؟

- أكيد

هرعت عايدة إلى ألبوم محفوظ بعناية أحضرته وفتحته، كانت تتصدره صورة للوسيم محمد أفندى عبد الوهاب والممثلة سميرة خوصى وكتابة: فيلم الوردة البيضا، أعقب ذلك صورة نفس الوسيم مع الممثلة نجاة على فى فيلم دموع الحب، وفى فيلم يحيا الحب مع الممثلة ليلى مراد، وفى فيلم يوم سعيد مع الممثلة سميحة سميح.

ثم أحضرت كراسة كانت قد كتبت فيها بخطها المنمنم أغنيات: سجى الليل، وضحيتِ غرامى، وطول عمرى عايش لوحدى. واحبه مهما أشوف منه، ويا دنيا يا غرامى.

الغريب أنه بعد خمسة وعشرين عاماً من هذا التاريخ سوف يسلك فاروق عزيز ذات مسلك والدته، ويكتب أغانى عبد الوهاب فى كراسات مسطرّة بخطٍ منمّق: ناصر كلنا

بنحبك، ودقت ساعة العمل، ويا نسمة الحرّية، ووطنى حبيبى .
اثنى الخطيب على أشياء خطيبته ، تردد بعض الشىء
ثم قال:
- أكيد فيه برضوا حاجات تانية محتاجة اهتمام.
أكّدت عايدة: آه طبعاً.. واخدة بالى.. كل حاجة لازم تاخد حقها.. تعرف.. وأنا فى المدرسة كان عندنا حصة نوم.
- نوم!؟
- آه.. صدقنى نوم
- إزّاى يعنى؟
- كانت السير تنزّل ستاير الفصل .. وتخلينا نحطّ كيعانّا وراسنا على البيوبترات وننام.. كانوا بيقولوا الجسم لازم ياخد راحة شوية علشان العقل يقدر يستوعب بعد كده.
- والله معقول
- بس إحنا طبعاً ما كناش بننام.. كنا نقعد نطلّع لسانّا وتغمز لبعض .
انفجر الدكتور عزيز فى الضحك حتى دمعت عيناه، انتهى من الضحك ونظر إليها طويلاً.
- تعرفى يا عايدة
- إيه
- حاسس إن إحنا هنعمل أسره كويسة قوى
واحمرّ وجه الفتاة بشدّة.

1975

منذ قليل كانوا قد سمعوا آذان العشاء فى التليفزيون، عدّل فاروق من وضع كأس البراندى الملئ بالثلج بجوار مطفأة السجائر على المنضدة فى حجرته، استرخى فى كرسيه الفوتيل، أشعل سيجارة مارلبورو وضغط زرّ التشغيل فى المُسجِّل الجروندج الكبير ذو البكرات، تصاعدت نغمات بيتهوفن فى افتتاحية إيجموند، تناول فاروق الكأس.

توقفت السيدة عايدة عن العمل فى مفرش الايتامين وخلعت النظارة الطبية، نظرت إلى ساعة الحائط المعلقة أمامها فى صدر صالة الشقة، كانت الساعة قد غادرت التاسعة بدقائق، شعرت السيدة عايدة بالقلق.

دق جرس الباب بالنزق المعروف عن فؤاد، قامت، فتحت الباب وقد رقص قلبها بالفرح، قبّلت فؤاد على وجنتيه وأخذته فى حضنها، سحب فؤاد شنطته إلى داخل الشقة، جلسا فى الصالة، بدا فؤاد لاهثاً لا تسعفه الكلمات.

- رحلة خطيرة يا ماما.. دنيا تانيه.. عالم حقيقى.. عايشين صاحيين ليل ونهار.

- حمد الله ع السلامة يا حبيبى

- فتح فاروق باب حجرته ونظر من خلال فرجة الباب.

- أيها العائدون من حافة المذبحة.. أقصد من بور سعيد.. حمد الله ع السلامة.

- إزيك يا فاروق

- إزيك يا فؤاد. وبدأ ينغم: بورسعيد.. بورسعيد.. بورسعيد.. أنت معجزة الوجود.. فى كفاحك المجيد.. بورسعيد .. بورسعيد.

ضحكت السيدة عايدة، بادرة فؤاد: سيبك يا ابنى م الهبل ده وتعالى شوف أنا جبت إيه.

خرج فاروق من حجرته وانضم لهما.

- يعنى هتكون جبت إيه؟.. بنطلونين جينز هتبيعهم وتشترى لك برشامتين وتروّق نفسك وتدخل فيلم كراتيه.

انزعجت السيدة عايدة

- إيه اللغة دى؟!

أضاف فؤاد: أسكت يا نصير العمّال.

- طيب يا انفتاحى إنت ونقابة الأطباء بتاعتك ورحلاتكم العبيطة.. بزمتك فيه واحد مصرى وصل تلاتين سنة وماشافش المتحف المصرى- فايروح رحلة بورسعيد

يجيب بضاعة ؟!!

- رحتُه وأنا فى ابتدائى.. المتحف والهرم والقلعة مع بعض.. ارتحت بقى؟

أخذ فؤاد يدعبس فى قاع الشنطة، نحىّ جانياً لفافات صابون مستورد وعُلَب شامبو بلاستيكية وأنواع من الشيكولاتة واللبان- حتى اخرج زجاجتى برفان.

- دول هديّتك بقى يا ماما ياست الكُل.. واحد اسمه لولو.. وواحد ريد جينز .. ميد إن بارس.. أصلى.

تناولت السيدة عايدة زجاجتى البرفان، نظرت إليهما بريبة وفتحتهما، جرّبت نقطة من بخاخ الزجاجة الأولى على رسغها الأيمن وتشممتها، أشاحت بأنفها، جرّبت الثانية على رسغها الأيسر، وذات النتيجة .

انزعج فؤاد: إيه يا ماما.. مش حلوين؟!

- حلوين يا حبيبى.. مرسيه خالص

- لأ صحيح.

- حلوين.. بسّ انت تاعب نفسك ليه؟.. مانا عندى حاجات كتير مفتخرة متعتقة لسه ما اتفتحتش.

بدون أن تشعر السيدة عايدة شمخ رأسها فى اعتزاز: ايسيتيه.. فيدجى.. كلا ندر.. سيلانس.. إنما الحاجات الجديدة دى بقى بتاعة بنات زمانكم.

- يا ماما.. يا ماما.. لازم نتطوّر ونعيش العصر.

ردد فاروق: ون ويك.. ون ويك

مدّ فؤاد يده إلى فاروق بحركة تمثيلية يقدم له زجاجة كبيرة من كولونيا الأولد سبايس قائلاً : ولاّ تلاقيك عاوز زيت خلاصة السبع روايح أو قمقم القسيس مثلاً؟!

– لأ.. دى بقى حاجة كويسة.. شكراً.

كوّم فؤاد فوق الأرض الصابون وزجاجات الشامبو والملابس ثم تساءل فجأة:

– بابا لسّه ما رجعش من العيادة؟

ردّت السيدة عايدة: بابا مارحش العيادة النهاردة.. مزاجه مش كويّس.. نايم.. وأنا اعتذرت للتمرجى فى التليفون وقلت له يعتذر للعيانين.

– أصحّيه يا ماما؟

– باقول نسيبه لمّا يصحى لوحده

علا صوت فؤاد منادياً: يا فاروق .. أنا عاوز اشترى الجبرتى وابن إلياس.. ألاقيهم فين؟

ضحك فاروق من حجرته قائلاً: ون ويك.. ون ويك.

كان فاروق قد أخرج أوراقه الخاصة، كتب التاريخ، وأسفله:

قانون استثمار المال العربى والأجنبى والمناطق الحرّة- جعل فؤاد ومن يصغرونه فى السنّ يأخذون الموقف الفلسفى (تشجيع الاستهلاك وتجارة التهريب والالتفات عن ما هو جاد وحقيقى).

ولم تكن تلك عادة جديدة على فاروق عزيز، بدأها لا

يدرى متى، تقريباً منذ خمسة وعشرون عاماً وهو يكتب كلمة ما تعليقاً على موقف ما كُلما عَنّ له، وسوف تستمر معه هذه العادة.

كان فاروق قد حاول الكتابة الإبداعية فعلاً، وقد كان ذلك هو الطبيعى بعد ما كان يمتلئ حتى الاختناق بما يقرأ من أدب وفلسفة وبما يعايش من أحداث ووقائع غير أنه فشل.

صَبَّ فاروق لنفسه مجدداً من الزجاجة فى الكأس، أشعل سيجارة وغيّر البكرات بأخرى كان قد أخذها من وصفى ابن عمه كمال والتى أحضرها الأخير بدوره من لندن، ضغط زرّ التشغيل فتصاعدت أصوات بيانو شوبان.

لندن.. النظافة والرقى والانضباط.. الموسيقى والحدائق والجدّية.. موريس ووصفى كمال ونادية فخرى هؤلاء هم الحياة مقطّرة،.. طبعاً مع موسوعة تونبى وكتاب اشبنجلر ومقدمة ابن خلدون ومختارات من لويس عوض.. فضلاً عن الغصن الذهبى وبريستد وابن رُشد.

دقق فاروق أن يحدد كيف بدأ اهتمامه بالقراءة بشكل عام فلم يعرف، فى المدرسة الثانوية- فاضت على عقله الأعمال الروائية التى كان يقرأها وعبارات سيناريوهات الأفلام الأفرنجى المترجمة التى كان يراها فى السينما، أيامها كتب فى أوراقه: تلك أشياء ثمينة.. أخشى عليها أن تنفلت وتضيع منِىّ فى حركة الزمن وأنساها.

بعدها بعام كتب: أقبية النبيذ الرطبة والمعتمة فى

القلاع والقصور القديمة.. رائحة دخان الكانون فى القرى المصرية.. السراويل الداخلية الأنيقة لخالتى ليلى.. تلك كلمات وصور تحمل بداخلها دلالات وشحنات تحرّكُ الروح والمخيلة تجاه المعنى.

بعضاً من تلك القصاصات ستقرأها فيما بعد نادية فخرى، ستنظر إلى فاروق بجدّية.

- على فكره.. دا كلام زىّ كلام النقاد.

- هبقى محمد مندور يعنى؟

- مش قوى كده

فى هندسة القاهرة أمضى فاروق تسع سنوات ، يهبط من شقتهم فى ميدان الجيزة صباحاً وبيده كتاب، ما بين سان سوسى واندايانا، ريش وايزافينتش. أمريكين سليمان باشا وجروبى عدلى وقهوة المالية وكازينو الحمام- قرأ عشرات الكتب ، وتعرّف إلى جيل الستينيات من المبدعين وأنفق عليهم وربطته ببعضهم صداقات متينة.

أتقن فاروق عزيز لعبة المثقفين مع الفتيات: يحدث اللقاء فيتبادلان حديثاً عابراً، اتصالات تليفونية سريعة مُهَذبة ومبررة ، يرشح كل منهما للآخر كتباً هامة فى السياسة والأدب ويعيره إياها، فى مرّات اللقاء التالية يتعرّفان قليلاً التجارب السابقة لكل منهما، ثرثرات ثم حديث عن الحب الحقيقى والأصدقاء الخونة والمجتمع القبيح، حتى يصبح الوقت ملائماً أن تتلامس أيديهما دون حرج ، تودّ أن تعطيه انطباعاً

بكونها عذراء فاضلة، ولا يودّ هو أن يكون كالصبى الذى يرغب لويلتهم الكعكة كلها مرّة واحدة، يتحايلان على التقاليد بالتقدمية، يتطور الأمر بشكل طبيعى، شيئاً فشيئاً تسأمهم اللعبة، يتخاذلان ويدعيان أمام الآخرين مشكلات ملفقة، يبحث كل منهما عن رفيق جديد بعد أن اكتشف نواقص صاحبه.

وهى اللعبة التى لم تصلح مع نادية فخرى، لأنها ليست مثقفة، ولأنها وهو الأهم كانت واقعة فى غرام وصفى كمال- الأمر الذى أدركه فاروق عزيز متأخراً .

1941

"الذى جمعه الله لا يفرّقه إنسان"

مت 19

مع ألحان الفرح والتهليل وبحلول الروح القدس تتم صلاة أكليل الدكتور عزيز متىّ فانوس والآنسة عايدة سناده مهاود.

وبهذه المناسبة السعيدة يتشرف الوجيه الأمثل سناده مهاود والمهندس كمال متىّ فانوس بدعوة سيادتكم لحضور هذا الإكليل المبارك بكنسية الشهيد العظيم مارجرجس بجرحا سوهاج الساعة السابعة مساء يوم الثلاثاء الموافق 1941/7/20 ، والذى وهبنا الفرح يهبه لكم.

تلغرافياً: مهاود وكمال- جرجا .

امتلأت الساحة الخارجية للكنيسة ببوكيهات الورد، ومن داخل القاعة تسرّبت رائحة بخور الندِّ ولبان الدكر، وبارفانات الفتيات المتحلقات كالفراش وتصاعدت تراتيل الأب

صمويل، بدت الحكاية كُلها كمشهد من فيلم افرنجى من تلك التى تعشقها عايدة.

أكمل الدكتور عزيز وزوجته عايدة احتفالهما بالزفاف فى بيت الخواجة سناده مهاود والحديقة التى تحيط به.

وسط جمع محتشد من الأقارب والأصدقاء والمعارف علا الجرامافون بصوت إديت بياف وأسمهان ، وشمل العشاء صدور الديكة الرومية وشطرت اللحم البارد والمعجنات المالحة والحلوة والتورتات والمشروبات.

أقسم الصبى جورج- ابن الخواجة سناده مهاود- بالعدرة أن يحيى فرح أخته العروس بطلقات الرصاص، انتحى جانباً هو وأصحابه الرُعَناء وأخرجوا الريفولفرات والفرود وظلوا يُطلقون فى الهواء كالمساعير- لدرجة أنهم أقلقوا المعازيم أن يحدث حادث ما يُكدّر الصفو، تسببت طلقاتهم فى تطاير بعض زؤابات الأشجار، كما تثقّبت بعض ثمرات المانجو ووقعت ووقع بعضها الآخر غضّاً، وانتهى الصبيان إلى جلسة خاصة يصُبّون لبعضهم من زجاجات الكونياك والعرقى.

كُل ذلك وغيره لم يدخل إلى بؤرة اهتمام الدكتور عزيز، ماشغله كان: كيف سيفعلها مع تلك الرقيقة بنت الناس، اليوم قد تأخر الوقت جداً وهو مُرهق تماماً ، وبالقطع هى أكثر منه إرهاقاً، فليكن غداً إذن- فى شقتهم بالجيزة، على الأقل لن يكون وراءك يا عزيز من هو ينتظر النتيجة ويسبب لك ولها

التوتر والانفعال، والدتها متوفاه أى نعم، لكن خالتها وعمتها وأخواتها البنات موجودات لهذا السبب.

نفّذ الدكتور عزيز ما انتواه، عندما جمعتهم الحجرة العلوية وقد ارتدى عزيز بيجامة حريرية وغيرّت عايدة ملابسها إلى قميص نوم حريرى شفاف يعلوه روب- جلسا فى الشرفة، بادرته عايدة: لسه هتسهر يا عزيز؟

- هولعّ سيجارة بسّ يا حبيبتى وأنام على طول.

صمت قليلاً وأشعل سيجارة

- على فكرة يا عايدة.. أنا باشوف إنك مُرهقه وأنا مُرهق .. ولازم هنصحى بدرى علشان السفر.. وانتى فاهمه بقى.. قدامنا العُمر كُله.

إحمّر وجه عايدة وابتسمت لنفسها فى ارتياح، انزعَجَت فجأة:

- طب واللى منتظرين دول نقول لهم إيه؟

- أنا دكتور يا عايدة.. هتصرّف.. هدّى لهم اللى هم عاوزينه.. مجرد حتة شاشة وعليها دم.. هُمّ يعنى هيحللوه.

ضرب دم الخجل فى رأس عايدة ، قامت وإستلقت على السرير، أخذت تناقش نفسها فى أخلاقية هذا التصرف، إنها تساعد عزيز فى خداع أهلها، غير أنها لم تستطع إخفاء إعجابها بهذه الفكرة، وبدون أن تشعر ذهبت فى النوم.

أخذ الدكتور عزيز ينفث دخان سيجارته ويستمتع بهواء الليل البارد المضمخ برائحة زهر البرتقال والفُل، وكان

متفائلاً بشأن المستقبل القادم، قام، قبّل النائمة على جبين
واستلقى بجوارها نائماً.

هبط الدكتور عزيز وهو يمسك بيد زوجته عايدة
الديزل المفتخر بمحطة الجيزة، قبل أن يهبطا دقق الدكتو
النظر فى الديوان وأسفل المقاعد الجلدية خشية أن يكونا قد نس
شيئاً، أشار لها أن تجلس فى بوفيه الاستراحة وتحرك مُسرع
نحو عربة العفش، أنزل الحمالون خمسة كراتين وشنطتين
كبيرتين إلى الرصيف.

عاد الدكتور عزيز إلى زوجته، كانت قد انتهت من
شرب فنجان قهوتها ، ترك الثمن مع البقشيش على المنضد
واصطحبها إلى خارج المحطة.

توجها نحو كبير الحمّالين ، كانت الشنط والكراتين
تعلو الشبكة المعدنية للسيارة الدودج ذات اللونين الأبيض
والأسود، نفحه الدكتور عزيز بعض النقود ومضت السيارة.

بعد أن طبّق البواب يده اليسرى على النقود ورفع يد
اليمنى إلى رأسه فارداً كفّه قائلاً: أى خدمة يا دُكتَر، وبعد أن
رد الدكتور : شكراً وأغلق باب الشقة تنفّس الدكتور عزيز
بارتياح كبير قائلاً لنفسه: الحمد لله.. وصلنا بالسلامة.. كل
شىء تمام ، ثم التفت إلى عايدة التى كانت تجلس وسط
الكراتين على كرسى فوتيل بالصالة:

- أخيراً يا عايدة بقينا فى بيتنا.. بيتنا التانى طبعاً..

بيتنا الأصلى فى الفيوم .

ابتسمت عايدة ونظرت إلى الأرض، نحىّ الدكتور عزيز الشنط والكراتين جانباً، سارعت عايدة قائلة: الشنطة الرمادى يا عزيز.. عاوزينها.. فيها الهدوم.. أنا هموت من التعب.

وناما كليهما نوماً عميقاً جداً، فى الثامنة مساءً استيقظ الدكتور عزيز، قام، أخذ حمّاماً سريعاً وحلق لحيته ، ارتدى ملابس خفيفة وانسلّ هابطاً إلى الشارع، بعد حوالى ساعة عاد يحمل لفافة ورقية كبيرة منقوش عليها بالأحمر اسم وعنوان الحاتى، بيده الأخرى حمل تحت إبطه شنطة ورقية تحتوى على عدة زجاجات من البيرة الساقعة، كان يحمل تلك الشنطة بشكل طبيعى من اليدان اللتان كانتا عبارة عن دوبار أحمر وأبيض مضفور فى بعضه، وكالعادة انقطعت اليد فاضطر إلى حمل الشنطة هكذا وهو يموت من الغيظ والضيق والحرج.

فى عام 1984- وقد كان فاروق منهمكاً فى حل الكلمات المتقاطعة- سأل موجهاً سؤاله إلى كل من فؤاد والدكتور عزيز: إيه هى الثورة التالته فى الطب يا دكاتره؟

ثأثأ فؤاد، انطلق الدكتور عزيز: الثورة الأولى اكتشاف التخدير.. الثانية اكتشاف التعقيم.. التالتة اكتشاف المضادات الحيوية- صمت قليلاً ثم أضاف مُغمغماً: والثورة الرابعة اكتشاف الشنط البلاستيك المتينة.

وانفجر فاروق وفؤاد فى الضحك.

عندما دبّ الدكتور عزيز مفتاحة فى باب الشقة وفتح
صاحت عايدة من الداخل: مين؟!.. مين؟!.
- أنا يا عايدة.. انتى صحيتى ولا إيه.. أصل لا
صحيت قبلك وقلت أكيد هنكون جعانين جداً ونزلت أجيب أكل.
- أنا لما صحيت ولقيت نفسى لوحدى خفت قوى.
- من إيه بقى.. حد يخاف من بيته؟!
كانت عايدة قد خافت بالفعل، رغم أن الدكتورعزيز
كان قد ترك لها نور الصالة مضاء وكذلك نور الحمام، فامتد
أضاءت نور الشقة كلها وأخذت تتفقدها بدقة وطالعت صور
عائلة زوجها المعلقة على الجدران ، توقفت بعض الشىء أمام
صورة دفعه الدكتور عزيز عند تخرجه من كلية الطب
ونجحت فى أن تتعرف على زوجها وسط هؤلاء الأطباء
الصغار- رغم أن شكله حالياً قد تغيّر كثيراً، أخرجت من
الشنطة الرمادية ملابسها وملابسه ورصتها فى الدولاب، صفت
أدوات تجميلها على شوفينيرة حجرة النوم على ناحية وعلى
الناحية الأخرى رصت بارفانات الدكتور عزيز للرجال
وكولونياته، على رف الحمام رصت الصابون وأدوات حلاقة
الدكتور، كل ذلك والجرامافون لا يكف عن بث أغنيات
الأفرنجية ، وعندها- عاد الدكتور عزيز.
أطفأ الدكتور عزيز نور حجرة النوم واكتفى بضوء
الأباجورة الصغيرة، حمل كرسيين ومنضدة إلى الشرفة، فرش
لفة الطعام وصب من زجاجة بيرة فى كوبين كبيرين وجلس

يأكلان وهما يستمتعان بالنظر إلى ميدان الجيزة وأضواء سان سوسى والأشجار المتشابكة حتى أول كوبرى عباس، رددت عايدة أكثر من مرة : عاوزين نقعد فى سان سوسى يا عزيز.

- لازم طبعاً.. لازم.

اعترضت عايدة فى بادئ الأمر لأن طعم البيرة لا يعجبها، وتحت إلحاح الدكتور عزيز أخذت تتناول رشفات من الكوب حتى انتهيا من الطعام.

جلسا يثرثران بعض الوقت ثم انتقلا إلى السرير، أخذ الدكتور عزيز يغازلها مطرياً جمالها الصعيدى الأسمر، قبلها فى جبينها ووجنتيها وهبط مُقبلاً فمها.

بدأ الدكتور عزيز يتجرأ بيديه على جسدها .

- عزيز.. أنا خايفة ومتوترة ومش عايزة.

- ماتخافيش خالص.

جاس بيديه فى صدرها وهبط إلى بطنها، تجاوز مكان عفتها إلى فخذيها ، بخبرة الطبيب لاحظ تصلب عضلات الفخدين، أخذ يختبر درجة صلابة الفخدين والسمانتين فوجئ ببداية حالة تشنج لجسدها كله وعدم استطاعتها تحريكه، حتى يديها تصلبتا بجوارها.

قام الدكتور عزيز جرياً إلى صندوق الأجزاخانة المنزلية فى صدر الصالة ، تخيّر دواءً لمعالجة تلك الحالة التشنجية ، فتح فم زوجته بالكاد وأعطاها الدواء، ابتلعت عايدة الدواء وتدلدق على صدرها وكادت تشرق ، ذهب الدكتور

عزيز إلى الحمام وبلل قطعة قطن كبيرة بالمياه وعاد، أخذ يمسح بها جبين عايدة ورقبتها وصدرها وهو يهمس: بلاش.. بلاش خالص.. المهم أنك تكونى بخير.. كل حاجة ولها وقتها.

بعد قليل كانت عايدة قد هدأت ثم راحت فى نوم عميق، دخل الدكتور عزيز إلى الشرفة يشعل سجائره ويفكر فى حل لهذه البلوى: ممكن أديها بنج خفيف.. بس ده عيب.. ميصحش بالمرة.. زيه زى الاغتصاب.. حاجة غير أخلاقية.. ربنا يستر.

بعد ساعة، قام الدكتور عزيز إلى النوم، لم ينس، وضع فى مؤخرته قمع غامق من اللبوس ليقى البروستاتا من الاحتقان، فقد تهيج الدكتور ولم يفعل شيئاً.

استيقظت عايدة مبكرة، هالها منظر عزيز النائم مؤرقاً، لقد نمت ذقنه وظهرت هالات غامقة حول عينيه فصعب عليها جداً.

انتاب عايدة نشاط جم، نظفت البيت ونظمت الأمتعة وأخذت حماماً فبدت كالوردة، عادت إلى عزيز.

– عزيز .. عزيز.. قوم يا كسلان الساعة داخلة على واحدة الضهر.. هموت من الجوع.. قوم هات لنا أكل.. سيبك من النواشف والحاجات المشوحة اللى باعتينها معانا دى.. لنا زهقانة منها.

قام الدكتور عزيز، حلق لحيته وأخذ حماماً فانتعش بعض الشىء، ارتدى ملابسه وخرج، عاد بلفة كبيرة من الكباب، أثناء ما كان يخلع ملابسه قامت عايدة بتجهيز السفرة

على أفضل وجه، أتى الدكتور عزيز وبيده زجاجة كبيرة من ويسكى البلاك آندهوايت جلبها من الدولاب.

- ها.. هتشربى معايا علشان نفسنا تتفتح؟!

هشرب.. هشرب. يا سيدى وأمرى لله.

وبرغم انتهاء الطعام وقيام عايدة برفع الأطباق وتنظيف المائدة- إلا أنها لم تتوقف عن الشراب، حتى أثناء استلقاءهما على السرير عصراً لم تتوقف، لاحظ الدكتور عزيز أن زجاجة الويسكى قد وصلت إلى منتصفها رغم أنه لم يشرب كثيراً، وبالفعل بدا على عايدة أنها ثملة من تحركاتها البطيئة اللا إرادية وتعثر كلماتها.

أمسكت عايدة بجانبها الأيمن قائلة بصعوبة : عزيز.. الحتة دى وجعانى .

- فين.. فين بالضبط؟!

لاحظ الدكتور عزيز أن موضع الألم الذى حددته زوجته هو أسفل البطن من الناحية اليمنى- فأصابه فزع شديد، يعرف جيداً أن انفجار الزائدة الدودية أو حتى التهابها لا يعطى مؤشرات ولكن يأتى فجأة .

- نامى.. نامى يا عايدة على ضهرك خالص.. وما تتحركيش أرجوكى

فعلت عايدة ما أمر به وهى تفتح عيناها بصعوبة من جراء الشراب، بدأ الدكتور عزيز يقوم بالاختبار التعليمى الأولى البسيط، ثنى رجلها اليمنى حتى وصلت ركبتها إلى

صدرها وفوجئ بأنها لم تصرخ متألمة كالمعتاد فى تلا
الأحوال، فرد الرجل وثناها وفردها عدة مرات.

كان قميص نوم عايدة قد انحسر حتى أعلى بطنه
وظهر سروالها الحريرى الأبيض، وجد الدكتور عزيز نفس
متهيجاً ، بخبث أخذ يكرر ثنى وفرد رجلها وهو يجعل يده
تحتك بموضع عفتها- فلم تعترض، أخذ يدلك لها موضع الألم
وهبط بيده إلى موضع العفة فصدرت منها آهة شهوة وهنائم
كل شيء.

فى المساء- كان الدكتور عزيز وزوجته يضحكان
على الموقف ويتشكران للبلاك آندهوايت وهما جالسان فى سان
سوسى، كانت هى تتناول الكاساتا وكان الدكتور يدخن مع
فنجان قهوته وهو يشفق على نفسه لو أن الدخلة كانت قد حدثت
فى جرجا كما كان يجب أن تتم.

فى أمسيات تالية دخلا الأوبرا الملكية، جلسا فى
جروبى عدلى وكازينو صفية حلمى وكازينو بديعة والأمريكين
ولاباس.

ذهبا للإسكندرية وجلسا على حافة بير مسعود والقيا
فيه بالقروش المعدنية وهما يتمنيان لبعضهما ولحياتهما معا
أمنيات طيبة، جلسا فى التريانون وديليس واتينيوس ، اشتريا
الملابس من سيكوريل وداود عدس وسمعان صيدناوى.

حكى لها الدكتور عزيز عن مقاهى متاتيا والمالية وأم
كلثوم ، سارا فى شارع البورصة ، تمشيا فى إحدى الصباحات

حتى الجامعة وعادا، سمعا الموسيقى من كشك حديقة الأزبكية وشاهدا تمثال إبراهيم باشا.

لم يعترض الدكتور عزيز مطلقاً على طلبات زوجته، ولا حتى على نزواتها الطفولية، الشيء الوحيد الذى اعترض عليه رغبتها فى أن تتعلم الرقص الغربى فى معهد خاص:

- يا عايدة.. دى حاجات ممكن نتفرج عليها.. وممكن نعجب بيها.. لكن منعملهاش.

سكتت عايدة ولم تعد إلى هذا الموضوع، شاهدت عايدة عشرات الأفلام ، استمتعت بريكس هاريسون وريتا هيوارث وجريتا جاربوا وجين كيلى واستر وليامز، عبد الوهاب وأنور وجدى وإسماعيل يسين وليلى مراد واسمهان.

شهران، شهران عاشتهما عايدة فى الجنة ثم عادا إلى الفيوم.

لاحظ موسى التومرجى أن الدكتور قد زاد تألقه فى عمله وزادت بشاشته فى التعامل معه ومع المرضى، وأنه قد أبدل سجائره الجولد فلاج بالبحارى.

1996

من لندن إلى لندن أرسل فاروق عزيز تهنئة إلى وصفى كمال ونادية فخرى بمناسبة زواجهما، أرفق مع التهنئة وباقة الورد قصاصة: "ليس ثمة انتماء للوطن، الهم الوحيد والحقيقى أن يؤمن كل فرد نفسه مادياً، أصبحت الأسرة بعد المال هى الحصن الرئيسى للفرد الذى لم يعد ينتمى فى الواقع إلا لأسرته".

بعدها بشهور فى بيت نادية ووصفى اشتد النقاش، قال فاروق: انتوا مثقفين لكن بلا انتماء لوطن.. انتماءكم لبعض وبس.. عايشين فى منطقة حرة قوامها التعالى.. مع بعض الغطرسة والتبرير.

اكتئبت نادية فخرى بعض الشىء ثم ردت فى ضجر وشراسة: يا سيدى انت حكايتك إيه؟.. محدش بيعيش لحد حياته يا فاروق إحنا مش قديسين.

أضاف وصفى فى برود: ماتنساش يا فاروق.. إحنا

مش مثقفين بمفهومك.. انت اللى مثقف بالمفهوم ده.

أدرفت نادية محتدّه:

– طب كنت عاوزنا نعمل إيه؟.. نسرق ولا نرتشى ولا نشحت.. لا هنعمل السرقة ولا الرشوة.. إحنا لسه برضو نضاف.. طب ماشى يا سيدى.. هنعيش فى مصر ونشحت من أهالينا وأصحابنا.. وهيبقى على قلبنا وقلبهم زى العسل.. ماشى.. لكن نتحمل إزاى بقى الجلافة والفظاظة والسوقية اللى وصل ليها الناس هناك.. تقدر تقول لى.. الله يكون فى عون أهالينا وأصحابنا هناك.. والأهم من كده.. ما تقول تلميحاتك دى لنفسك.

قال فاروق لنفسه: ما هو أنا زيكم.. ياما اتمررت بالخواء اللى حصل بعد ضياع الأحلام.

اعتذر فاروق وقام حزيناً مغادراً.

لم ينم فاروق عزيز حتى الصباح، تجرع نصف زجاجة الويسكى وجلس على حافة رخوة من الرؤية الزائغة.

رأى نفسه وسط الطلبة والناس يتدفأ بهم فى اكتظاظ التظاهر، تنشق حناجرهم وصدورهم ، زعقوا بإعادة محاكمة قادة الطيران المسئولون عن الهزيمة، طالبوا بتجييش الشعب وبالديمقراطية، ومزجوا ذلك بالغناء الوطنى، ورآهم يركبون واحداً إثر آخر سيارات الشرطة الكبيرة ذاهبين لاختبار صلابة الحلم فى سجون الحالم الأول.

فى 1971، 1972 غنى معهم مع الشيخ إمام ونجم وعدلى فخرى.

لم يدر فاروق عزيز لماذا توقف كثيراً عند 1976، كانوا فى الثامنة صباحاً يجيئون ، يصلون من أعماق النجوع والكفور والقرى وهم يلوكون بصاقهم البلغمى ويلبسون الجلابية فرده ويدخنون السجائر الفرط وتكاد رأس الواحد منهم تنفلق من الدوخة ومن الرغبة فى كوب الشاى الساخن، تصطك أسنانهم وأرجلهم من شدة الصقيع، يجلسون القرفصاء زائغى النظرات والرأس تئن منهم الضلوع ويتوه منهم الحديث فى أثر النوم اللذيذ الذى انتزعوا أنفسهم منه عند الفجر، يرتكنون إلى الجرارات والعربات الباردة والمعدات العملاقة.

يظهر المهندس فاروق عزيز، يسير فى خطوات عصبية، يدفئ يديه فى جيوب بنطاله وتتراقص سيجارته فى فمه، يهبون جميعاً للسلام عليه، يحادثهم بود الأسماء الأولى ناسياً وقاحة عويس وخبث رجب وطمع جمال وتراخى زين.

يبدأ اللغط ، يقفون فى حلقة مهوشة حوله، تتكتك مواتير الجرارات ، وتخرج دخاناً أسود متقطع ، تركب كل فرقة إلى موقعها لزرع الأعمدة وشد الأسلاك بينها لإدخال الكهرباء إلى الريف.

داخل السيارة الجيب يجلس فاروق عزيز، يمر على المواقع، يتابع العمل ويشرف ويناقش، يفرد جرائده ليعرف أخبار العالم الذى نسيه مكتفياً بعالمه هذا.

بعد شهور- تنزاح غشاوة التعب والإرهاق وتشرق النفس ويحتل الوجوه فرح طفولى محبب ممزوج برجاء وتلهث الألسن بالدعاء أن يتم العمل العظيم على أكمل وجه.

وحينما تمتد يد السيد الكبير لترفع السكينة فى احتفال مهيب وسرادق- تشرق نقطة صغيرة بالضوء فى عمق ريف مصر، تمتلئ القلوب بلحظات احترامها لنفسها ورضاها عن عملها وإحساسها بأنها شىء، وشىء هام.

وبينما تتصدر الإشادات بمجهودات الكبير الذى أدخل الكهرباء إلى الريف، وبينما تدور تروس الآلات الحاسبة فى الشركة وتكاد تنفجر من إحصاء مكاسبها- يكون فاروق عزيز واقفاً فى الظل، يشرف على رجاله وهم يجمعون عتادهم ويفكون خيامهم ويركبون فوق مقاطير الجرارات منطلقين إلى مواقع جديدة.

- من أيامها وفؤاد بيقول عنى نصير العمال.. ما هو مش فاهم حاجة.. ون ويك.. فعلاً ون ويك.

وبابا كمان غلطان شوية: يا سى فاروق.. الحاجات دى مش بتاعتنا.. إحنا مش مغامرين.. حياتنا لازم يكون فيها استقرار وأمان.. نبقى زعما معلش فى الحياة الاجتماعية والوجاهة.. لكن السياسة- لأ.. حبيبك سيد درويش بيقول حد الله ما بينى وبينك غير حب الأوطان يا حكومة.. لا أنا عد رصاصة ولا قد شومة.

- ما أنت برضو بتحبه يا بابا.. ثم إن هو بيتريق على الموظفين التقليديين.

- ما لهم الموظفين.. ما علينا.. يتريق براحته يا سيدى.. اعمل شغلك مظبوط وده يرضى ضميرك السياسى

وطنى والدينى كمان.

شغلى فى كهربة الريف كان آمن مفيهش خطر.. محيح كان شغل جاد ومتقن وأثره بيبان على الناس على طول يرضى ضميرى- لكنه آمن.. ليه أنا كده فى النص.. أقل بجاعة من دخول السجن.. ومش فى موضوعية نادية وصفى.. قلقان.. ليه قلقان؟!

ألقى فاروق بكوب الويسكى على طول يده وأجهش فى بكفاء عاجز يردد: أنا طبقة عزيز بشرى فانوس.. أنا عزيز بشرى فانوس.. أبويا لابد جوايا زى السرطان.. دنا حتى مش قادر أكون راضى عن نفسى زيه لا هنا ولا فى مصر.

فى الصباح يتحرك فاروق عزيز محمر العينين منتفخ الوجه إلى عمله ، فى صندوق بريده وجد خطابا- من أخيه فؤاد يسأله: ما رأيك فى المرأة يا نصير العمال؟، يقول فاروق عزيز لنفسه: ون ويك.. ويسرع الخطى.

1992

تضاءل حجم الدكتور عزيز وانحنى ظهره، زادت نظارته الطبية سمكا، ضاق خلقه وأصبح ينفعل ويتشاجر لأتفه الأسباب.

سمع فؤاد من حجرة الكشف المجاورة صوته يعلو، صوته الذى أصبح مصحوباً بالرزاز المتطاير من فمه وبحركات يده العظمية المعروقة تشير إلى محدثة بالخروج تطرده، وقد اختلطت كلماته ملضومة فى بعضها البعض، أتى فؤاد إليه عدواً.

- فيه إيه.. فيه إيه يا بابا.

- أتفضل يا سيدى.. الحمارجى يكشف على طفل عيان.. قبل الكشف بيقول لى اكتب لنا مضاد حيوى.. خلاص.. حضرته قرر إن ابنه محتاج مضاد وأنا علىّ أنفذ.

كان الطفل المريض واقفاً مبهوتاً وكذلك أبيه الفلاح، لملم الأب نفسه وحمل ابنه وشوح فى جلافه: ما هى كده..

زاد انفعال الدكتور عزيز: إمشى.. إمشى يا حيوان. وألقى وراءه نقود الكشف فوقعت فى صالة العيادة، تركها الرجل والتقطها وخرج مسرعاً.

- يا بابا.. يا بابا هدى نفسك شوية.. أعصابك.. ماتنساش.. إنت دلوقتى فوق التمانين.

- إن شاء الله فوق المية يا سى فؤاد.. الكرامة فى المهنة كرامة والأصول أصول.. يكفينى فخراً يا سيدى إنى لسه واقف على رجلى وباشتغل.. وعامل لك داده انت وأخوك اللى سايبنا وعايش فى بلاد بره.. جاتكم القرف.. مش كفاية التراب والنمل اللى مزهقينى فى عيشتى.. دحنا بقينا زبالة.

من البوتيك أسفل العيادة تصاعد عالياً صوت مسجل بأغنية حديثة رقيعه، إحمر وجه الدكتور عزيز وجلس على كرسيه يبتلع هزيمته ويغمغم.

منذ عام- وعندما أفتتح البوتيك وعلا صوت المسجل طلب الدكتور عزيز من صاحبة مرة واثنتان أن يخفض الصوت، وفى كل مرة كان الرجل ينفذ بعد أن يداهن الدكتور بقوله: عنينا .. دا انت بركتنا.. حد يقدر يكسرلك أمر.

- أمر إيه- يا بنى آدم.. دى أصول.. أصوووول.. وبا ريتك بتسمع حاجة عدله.

وكان الدكتور عزيز يقول لنفسه: الراجل ده لزج.. متهيأ لى كله ملطع فازلين.. مش شعره بس.

نصف ساعة فقط ويعلو صوت المسجل مرة أخرى بفعل الرجل أو زوجته سليطة اللسان أو ابنه البطلجى- سيان، لذلك- قرر الدكتور عزيز وقتها أن يقدم فيه بلاغاً للبوليس.

هبط الدكتور عزيز، أشار لسيارة سرفيس وركب، فوجئ بالصبى يقول له: الأجرة يا عم الحج- فأعطاها له فى قرف، فوجئ ثانية بالسائق وقد قام بتشغيل مسجل السيارة بصوتٍ عالٍ فى واحدة من تلك الأغانى.

- من فضلك يا ابنى.. وطى ده شوية.. اسمع على قدك.

ردّ السائق بسوقيه: لا مؤاخذة يا عم الحج دى حرية.. اللى مش عاجبه ينزل.. إدى له يا بنى التلاتة شلن اللى هيشترينا بيهم، وأوقف السيارة فى غشم ارتج له الركاب، قال الدكتور عزيز فى نفسه: باين هيبقوا بلاغين.

نزل الدكتور عزيز واستقل سيارة أخرى، لحسن الحظ لم يكن بها مسجل من أصله، وصل إلى قسم الشرطة وتوجه إلى أحد الأمناء فى النوبتجية.

- صباح الخير يا بنى.. عاوز أعمل بلاغ إزعاج لواحد.. بيعلى المسجل ومش عارفين نقعد ولا نشتغل منه.. نبهنا عليه كذا مرة ومفيش فايدة.

- الواحد دا فين يا حج؟!

- فى شارع السنترال.

- طب دا كل الشارع زايط.. انت مش واخد بالك.. أصل دا أهم شارع تجارى فى البلد.

يا سيدى واخد بالى ولا مش واخد بالى إعمل شغلك وخلاص.. حرر لى محضر ببلاغ منى.

عندما علا صوت الدكتور عزيز منفعلاً انتبه الملازم أول فقال: فيه إيه؟، بادره الأمين وهو يصنع حركة دائرية بأصابع يده قرب رأسه علامة على الجنون: واحد عاوز يقعد فى جو هادى.. زعلان إن فيه فى شارع السنترال مسجلات شغالة.

انفجر الدكتور عزيز ولم يدر ما الذى ينطق به، تسارعت كلماته مصحوبة بالرزاز المتطاير انتهى به الأمر فى مكتب المأمور وتم عمل محضر لصاحب البوتيك.

عندما ذهبت الشرطة لصاحب البوتيك تصادف أن كان المسجل لا يعمل، ومع ذلك أخذوا تعهداً عليه بعدم الإزعاج.

أصبح الرجل فى دخول وخروج الدكتور عزيز يجر له ويهز رأسه ويتوعده: علىّ النعمة أنا حايش عنهم عصام ابنى بالعافية، ثم تطور الرجل إلى السباب: راجل كهنه ومجنون.. اللى زيه هربان م القرافة، وهددت زوجته: والله لنا ممكن أبطح نفسى عليهم وأقطع هدومى وأوديهم فى حديد.

يومها قال فؤاد: لو تحب يا بابا أنا ممكن أكلم عادل صاحبى يعلمهم الأدب.. أهو عقيد شرطة.

ويومها انفعل الدكتور عزيز بشدة وصرخ أسكت..

أسكت.. انتوا مش فاهمين حاجة.

أشعل الدكتور عزيز سيجارة وهو يجتر الهزيمة.

على فكرة يا بابا.. واحد صاحبى دكتور نفسانى قال لى حاجة غريبة.. التراب سببه إن بيتنا زعلان على ماما، أنا حسبتها لقيت التراب والنمل جم فعلاً بعد موت ماما.. الرب يقدس روحها.

- انت عاوز علاج نفسانى انت وصاحبك.. معروف أن البيوت حياتها بتتجدد وتطول بالاستعمال ووجود نفس بنى آدمين فيها.. يعنى بالعربى بالصيانة ياسى فؤاد.. ولما الناس يسبوها فاضية بيحصل فيها شوية تصدعات وطبيعى بتتملى بالتراب..

توقف الدكتور عزيز عن الحديث فجأة ، غمغم: الغريبة إننا قاعدين فى البيت.. ما هجرناهوش.. وأهو مليان تراب ونمل، ثم إلى فؤاد: روح روح شوف كشوفاتك.

هدأ الدكتور عزيز قليلاً: مش البيت بس. التراب وصل لكل حتة جميلة.. سان سوسى انتهى من أصله .. عملوا بداله برج وقال مسميينة سان سوسيه.. جهلة .. صيدناوى وعدس وشيكوريل بقوا قطاع عام وباظوا.. صفية حلمى وقفلوه.. أم كلثوم وماتت.. الأوبرا اتحرقت وعملوا بدالها واحدة أسمنت زى اللعبة.. بلا قرف.

ضغط الدكتور عزيز زر تشغيل المسجل الصغير، تصاعد صوت عبد الوهاب يغنى جبل التوباد، عندما وصل

إلى: قد يهون العمر إلا ساعة- وتهون الأرض إلا موضعاً
كانت دموع الدكتور عزيز تسيل خلف نظارته الطبية.
- أنا تعبت.. تعبت.. طول عمرى أصولى وسليم.. ليه
الناس مبقوش سلام.

كان الدكتور عزيز فعلاً مهذباً ودقيقاً ويراعى الأصول
فى كل شىء ، لم يتأخر أبداً عن إعطاء إيصالات الإيجار
للسكان القاطنين فى عمارتيه- رغم تأخر بعضهم فى السداد،
ولم يمتنع أبداً عن إجراء أية إصلاحات أو ترميمات فى
المبانى، تحمل تلاعبات مؤجرى المحلات فى الإيجار من
الباطن بدون إذنه وبدون دفع نسبته وإن اضطر فى بعض
الأحيان للدخول معهم فى قضايا، لم يتأخر عن دفع العوايد،
كان يذهب سنوياً لمأمور الضرائب وهو عامل حسبته بالمليم
ويدفع ما عليه للدولة- ويفاجأ بعدها بوصول خطاب من
المأمورية يحتوى على تقدير جزافى، وإلى أن يصحح الدكتور
عزيز الوضع يضيع أسبوع فى المشاوير والمناهدات، لديه
صندوق حديدى يحتفظ فيه بحجج الملكية والأوراق الهامة
خشية الحريق.

- كل أوضاعى سليمة.. ليه الزمان انقلب كده.

كان الدكتور عزيز قد اعتاد على أن يذهب كل خميس
وجمعة إلى القاهرة، مساء الخميس كان يتوجه إلى مقهى أم
كلثوم بالتوفيقية، كان الجارسون يهمس فى أذن الواقف على
النصبة بالطلبات ولا يكاد المرء يسمع صوت الملاعق فى

تقليب المشروبات كان المقهى لا يقدم أى نوع من ألعاب التسلية، صمت مقدس ، الوحيد الذى كان مسموحاً له بالانطلاق هو صوت الست فى تسجيلات حية من الخمسينات حتى رحيلها فى السبعينات، وقت أن كان مطار القاهرة يعلن حالة الطوارئ فى الخميس الأول من كل شهر لاستقبال محبيها من كل بقاع الوطن العربى لحضور حفلتها- كان المقهى أيضاً يعلن حالة الطوارئ لاستقبال محبيها من جميع أنحاء مصر.

أيامها- كان الجميع يجلسون صامتين للاستماع ، فى اليوم التالى كانت الأغنية الجديدة تملأ المكان والسميعة يسمعونها للمرة الثالثة أو الرابعة، لدرجة أن محطة تليفزيون عالمية سجلت فى- وعن المقهى ضمن إطار برنامج عن الست.

بمرور الوقت اختفى الالتزام، أصبح الدكتور عزيز يستخدم منديله القماشى الأبيض الناصع حتى يصبح أسوداً- فى مسح كرسى المقهى والمنضدة من التراب، صحيح أن اسم أم كلثوم وصورتها يحتلون المكان لكن صوتها لا يكاد يسمع من ضوضاء باعة التوفيقية ولاعبى النرد وصياح الجارسون وأصوات تقليب المشاريب.

- يا اللللله

فى صباح الجمعة كان الدكتور عزيز يتوجه إلى كازينو صفية حلمى، يتدفأ بشمس الصباح، يجلس فى الشرفة الأنيقة التى تطل على دار الأوبرا المصرية والحديقة التى

يتوسطها تمثال إبراهيم باشا، يجالس كبار موظفى الدولة والمثقفين، يتمتع بالخدمة الراقية، وكم رأى نجيب محفوظ وصلاح أبو سيف وعبد الحميد جودة السحار.

- فى الأول.. الأوبرا اتحرقت.

أقاموا مكانها جراج اسمنتى متعدد الطوابق جهم، ثم أغلقوا شرفة الكازينو بالزجاج لمنع الأصوات المزعجة المتسربة من الميدان، وأصبحت القهوة تقدم فى فناجين مشطوفة الحواف.

- قلنا معلش

وأغلق الكازينو تماماً

- يا بختك يا عايدة.. يا بختك.. مشيتى بدرى قبل الهوان.

أتى فؤاد مسرعاً ملهوفاً: بابا.. فيه حاله مهمة عاوزاك.. هارت أتاك.

انتزع الدكتور عزيز نفسه من أفكاره. أنا جاى أهه، وقام وراءه.

1948

كان فؤاد قد بلغ من العمر ثلاثة سنوات، سمين بعض الشيء ، مزرق العينين واسعهما مفلفل الشعر يرتدى الباربانوزات دائماً، وكانت مِنّه- تلك التى أحضرتها السيدة عايدة من منزل أبيها الخواجة سناده مهاود بجرحا- هى التى ترعاه وتهتم بكل شئونه.

قليلاً ما كان يجالسه أو يداعبه الدكتور عزيز، كان منشغلاً تماماً بمرضاه بعد أن ذاع صيته فى الفيوم كلها فضلاً عن القرى والعزب المحيطة، غير أن الدكتور عزيز كان يتعجب من هذا الطفل الغريب والمندهش دائماً.

كذلك كانت السيدة عايدة تحرص على ألا يتعلق بها فؤاد أكثر من اللازم خاصة منذ علمت أنها حامل للمرة الثانية وقد أوشكت على الوضع وأملت أن تنجب فتاة فى مثل جمال فؤاد وتسميها هيلدا على اسم أمها الراحلة.

نكصت السيدة عايدة إلى هواياتها القديمة، افتتحت

ألبومها الجديد بصورة للأميرات فوزية وفايزة وفايقة وهن يرتدين الزى العسكرى وكتبت تحتها: البذلة العسكرية للنساء موضة 1948، وألصقت قصاصات منزوعة من الجرائد والمجلات تتعلق بنشاط الأميرات وسيدات المجتمع الراقى فى المجهود الحربى.

أبرزت خبر أن هدى شكرى القوتلى فى طليعة فتيات سوريا المتحمسات لفلسطين وأنها نذرت إبريقاً من الذهب تضعه على قبر العذراء مريم عند تحرير فلسطين.

أحاطت الخبر بإعلانات : فلسطين قرحة دامية فمدوا لها بأموالكم يداً شافية، لا عذر لعربى يجد قوت يومه أن يبخل بالبذل لفلسطين.

فى صباح 15 مايو أشيع فى الإسكندرية أن داود عدس اليهودى صاحب محلات عدس قد قتل، ثم أتضح أنها شائعة، وفى القاهرة أشيع خبر عن نسف الأزهر الشريف بالديناميت وذبح ثلاثة حاخامات فى مذبح القاهرة وقتل 250 يهودياً فى ميدان الملكة فريدة واتضح أنها شائعات، أيضاً جاء خبر قيام دولة إسرائيل واعتراف أمريكا بها.

بعد ذلك خبر اشتراك الحرس الملكى فى القتال وقد دعت الصحف الشعب للخروج فى الساعة الخامسة والنصف لتوديعه، وأكدت الصحف على خط سير الموكب الرسمى الذى سيمر بميدان الأوبرا فشارع إبراهيم باشا وصولاً إلى محطة مصر حيث ستتم مراسم الوداع، واختتمت الصحف الخبر

دعاء للملك فاروق بالتوفيق فى حملة فلسطين.

خاطبت السيدة عايدة الطفل فؤاد: دى حاجات بأعملها زمن.. لك إنت وأختك النونّة اللى جاية.

اندهش فؤاد كالعادة، قصقصت السيدة عايدة عناوين: لملك فاروق على الجبهة، كل الطرق موصلة إلى تل أبيب ، لعلم المصرى فوق القدس، احتلال القوات المصرية لعسلوج وميت طما والحليقات، المواوى قائد القوات يأمر بالهجوم العام من البر والبحر والجو، استسلام القدس القديمة وأسر 2600 يهودى.

قدم الدكتور عزيز لزوجته قصاصة : براءة اليوزباشى أنور السادات فى قضية مقتل أمين عثمان وزير المالية السابق- فضمتها فوراً إلى مجموعتها.

نفس السلوك سلكة فاروق أيضاً فى 67، سجل على شرائط الكاسيت البلاغات التى صدرت عن إذاعة القاهرة وصوت العرب بإسقاط طائرات العدو التى بلغت عدة مئات، وكان يعشق صوت أحمد سعيد ومحمد عروق، وفتر حماسة عند الاعتراف الحكومى بالنكسة.

فى 73 فعل فاروق نفس الشىء ، سجل البلاغات الأولى للطلعة الجوية وأغنية ورده: وأنا على الربابة باغنى وموسيقى على إسماعيل مع كلمات نبيلة قنديل للمجموعة : رايحين شايلين فى أيدنا سلاح.

فيما بعد- عمل فاروق مونتاجاً لهذا الشريط ووضع

عليه أغنية عبد الحليم حافظ عدى النهار، وظل هذا الشريط معه إلى استعارته منه نادية فخرى وفقد منها.

جمع فاروق أيضاً مقالات نجيب محفوظ ويوسف إدريس ونعمان عاشور عن الحرب ومقالات الاستراتيجية العسكرية.

مع منتصف يونيو 48 قلت أخبار الحرب تماماً، وردت أخبار مثل تطورات الأزمة الوزارية ، تحذير ضد الكوليرا، فلسطين تحت الوصاية، أول صفيحة بنزين داخل فلسطين وصل ثمنها إلى ثلاثة جنيهات، حديث مع الكاتب برنارد شو حول فلسطين.

وتمت ولادة فاروق، عندما حضر خاله جورج من جرجا للتهنئة والمجاملة- إذ أن الخواجة سناده مهاود كان فى مرض موته لا يحتمل السفر- حدثت مشاده كبيرة بين الدكتور عزيز والسيدة عايدة، صمم الدكتور عزيز على رأيه أن جورج ولد خسران ومش نافع فى حاجة ومضيع فلوسه على لعب الورق والشرب والستات.

بكت السيدة عايدة: من فضلك.. عيب يا عزيز دا برضو أخويا وخال عيالك.

وبمرور الوقت تأكدت السيدة عايدة من صدق أقوال الدكتور عزيز، فبعد موت الخواجة سناده مهاود أطلق جورج يده فى كل شىء، وقالها بالفم المليان: عندينا فى الصعيد مفيش ورث للبنات.. اللى مش عاجبة من اجوازهم يخبط راسه فى

تمت عدة محاولات ودية لأخذ حقوق البنات من تعب الأقارب فى ذلك سنوات طويلة ولا فائدة، عندما الجميع أن الانتظار أكثر من ذلك كفيل بتبديد كل الثروة السيدة عايدة بعمل توكيل رسمى عام فى الشهر العقارى إنها ليلى، قمن بعمل إعلام شرعى للمرحوم وبعدها رفعن ضية 1951/162 مدنى جزئى جرجا فرز وتجنيب.

وقد صدر الحكم: حيث أن المدعيات قد قمن برفع دعوى بموجب عريضة أعلنت للمدعى عليه جورج سناده مهاود واختصمن أيضاً بموجبها زاخر عبده ناروز ونصحى بكاروس وجاد على عرابى وألجا ميخائيل تادرس ، وفهيم وزا مكرم وعبد الحميد سيد عطوان باعتبارهم مستأجرين بعض العقارات موضوع القسمة ليكون الحكم فى دعوى القسمة فى مواجهتهم

وانتهى الحكم بعد اعتماده لتقرير الخبير إلى أن حصة السيدة عايدة سناده مهاود هى ما مجموعة 7س 13ط– 42ف عبارة عن قطع منفصلة متباينة المساحة موضحة الحدود.

ولحسن الحظ خاف جورج من التعنت فى التسليم، بل أنه حتى لم يستأنف الحكم.

وقتها ورغم أن الدكتور عزيز كان قد نفض يده من هذه المسألة خشية التقول عليه– فقد قام بتهنئة زوجته، وقد سألته هى بدورها فأشار عليها أن تكتب هذه الأرض مناصفة

بيع وشراء لفؤاد وفاروق.

فى عام 1985 وبحسٍّ عملى أدرك الدكتور عزيز أن مباشرة تلك الأرض ومتابعة المؤجرين والسفر للصعيد شيء صعب، وأنها ممكن ببساطة فى إطار انتشار النصب والسرقة أن تسرق، باعها الدكتور عزيز بسعر أقل من السائد ووضع النقود آمنة لولديه فى البنك.

وبالرغم من أن السيدة عايدة ظل صدرها شاغراً ضد شقيقها جورج- إلا أنها حزنت وبكت كثيراً عند وفاته فى 1974، كان عائداً إلى بيته يتتعتع من السكر، وعندما كان يعبر خليجة صغيرة تعثر ووقع فيها على وجهه وغمر الماء أنفه فغرق، ضرب الدكتور عزيز كفاً بكف.

- يعنى موت وفضيحة كمان؟!، انفجرت السيدة عايدة: من فضلك.. من فضلك يا عزيز بقى، وانهمرت دموعها.

اندهش فؤاد كالعادة واحمرت عيونه الزرقاء موشكة على البكاء: خالوا ده كان شخص غريب قوى، ومط فاروق شفتيه فى وجودية عابثة.

عملت له السيدة عايدة ألبوماً خاصاً، افتتحته بصورة له وهو يرتدى الأسموكن وفى يده عصاه الأبنوس، وسيم مزجع الشارب أشبه بوغد أمريكى ، كتبت تحتها: الوجيه جورج سناده مهاود.. من أعيان جرجا.. انتقل للأمجاد السماوية عام 1974.

سخر الدكتور عزيز: يا خسارة .. كان هيطلع دكتور!

هبت فيه: عزيز ، اعتذر لها الدكتور عزيز ثم قال: على فكره يا عايدة.. جورج مش مخلف صبيان.. مراته ليها التمن.. وانتى وأخواتك تورثوا مع بناته .. دا طبعاً إذا كان فاضل من ثروته حاجة.

- مش عاوزه حاجة.. أُسكُت.. أُسكُت.

ظل فؤاد حتى بعد وفاة السيدة عايدة يؤمن بمقولة أن خاله جورج كان مثل كلارك جيبيل أو فى أسوأ الفروض مثل أنور وجدى.

اكتشف فؤاد صحة ذلك بنفسه فى 1983، وبعد أن أصبحت حجرة السيدة عايدة مباحة للأسرة كلها وبعد أن غزاها التراب والنمل. دعبس فؤاد فى أشياء أمه الخاصة، نافضاً عنها التراب، فى أحد الألبومات وجد ملصقاً: أفلام اه.. أنور وجدى يفوز بثقة الشعوب العربية جمعاء فيقدم إنتاجه الضخم لموسم 51 52.. حبيب الروح، يوسف بك وهبى وليلى مراد وأنور وجدى، قطر الندى، أنور وجدى وشادية وإسماعيل يس.

ساعتها- قارن فؤاد بين صورة خاله جورج وصور أنور وجدى واكتشف الشبه الشديد بينهما.

اندهش فؤاد عندما رأى الإعلان الثانى، شركة نحاس فيلم التى عملت دائماً فى سبيل رقىّ ورفع مستوى الأفلام المصرية تقدم بكل فخر: الشرف غالى، بطولة نور الهدى، وجمال فارس وعلويه جميل وسراج منير، وإخراج بدرخان،

يعرض حالياً بسينما كوزموس.

صورة واحدة وجدها فؤاد فى ألبوم منزوى للدكتور عزيز والسيدة عايدة بجوار برج إيفل وتحتها بخط والدته المنمنم كُتب: رحلة باريس 1943، وبالرغم من أن فؤاد كان قد سمع كثيراً من الدكتور عزيز عن هذه الرحلة- فقد نظر إلى الصورة باندهاش شديد.

- فى الرحلة دى عملنا مقلب محترم فى الدكتور حمدى مشرف الرحلة الله يرحمه.

تساءل فاروق وفؤاد فى صوت واحد: عملتوا ايه يا بابا؟!

- الرجوع للأوتيل كان الساعة سبعة مساءً.. رجعنا فعلاً ودخلنا قُدّامه.. وساهيناه وخرجنا من الباب الورانى وفضلنا سهرانين أنا وأمكم للساعة عشرة واتصورنا عند برج إيفل.

إندهش فؤاد أيضاً وفتح فمه، هزّ فاروق رأسه ساخراً: فعلاً مقلب محترم.

سأم فؤاد فقام ينفض التراب عن نفسه، كان بنطلونه والبلوفر الذى يرتديه مُشبَّع بالتراب، وكذلك كفيه، لدرجة أن التراب كان قد دخل تحت أطراف أظافره وعلق بشعره وشعيرات ذقنه النابتة.

خبط كفيه فى بعضهما وخبط على صدره وكتفيه

مضى، واستمر الدكتور عزيز يتساءل بنيه وبين نفسه: لماذا
يزعج فؤاد من التراب؟!
ولم يستطع الدكتور عزيز أبداً إنكار أن فؤاد طبيب
ومشخصٌ ماهر فى أمراض القلب.
- على الأقل فيه حاجة يعرفها.. آهو طول عمره

نخبط.
حتى وهو كبير- وقبل وفاة أبيه بشهور سأله: سمعت
بابا عن العالم المصرى أحمد زُهير؟، ابتسم أبيه رغماً عنه:
يابنى بطّل بقى.. اسمه أحمد زويل.
وهو صغير- اعتبره الدكتور عزيز أبلهاً ، فبعد أن
كثر الحديث عن الأيتام والملاجئ سأل فؤاد عن الملجأ، أجابه
أبيه: أهُه.. فى الشارع اللى ورانا.
أضافت السيدة عايدة: دا المكان اللى بيروح فيه
الأطفال اللى بباهم ومامتهم يموتوا، ضحك فؤاد: حظنا
كويس.. يا دوب نعدى الشارع.
لكن الدكتور عزيز ظل مبهوتاً منه بعد أن حقق فى
ضربه لأخيه الصغير فاروق، بكى فؤاد بحرقة ثم برر اعتداءه
على أخيه: أصله غلط فىّ غلطة مش طالعة من قلبى..
- قال لك إيه يا فالح؟
- قال لى يا جزمة
- إمتى؟
- من سنتين

دارى الدكتور عزيز وجهه يضحك، وود لو ينفجر الضحك، بعد أن هدأ ضحكه:

- حاجة من سنتين.. جى تعاقبه عليها دلوقتى وبعدين إنت ما تعاقبوش.. تقول لى وأنا أعاقبه.

- أصله غلط فىّ غلطة تانيه.

- قال لك إيه؟

- مش فاكر

- يا بنى إنت بتجيب الكلام ده منين؟!

هز الدكتور عزيز رأسه مؤمناً فقد تذكر عبا فاروق: ون ويك.. أونلى ون ويك.

1997

مضى شهران كاملان وعيون فؤاد لم تزل محمرة ولم يزل مندهشاً لا يكف عن البكاء كلما تذكر موت فاروق لمأساوى فى أحد مستشفيات لندن المتواضعة.

فور الوفاة- بدأ وصفى كمال على مدى أيام يمهد لإخطار الأسرة فى الفيوم، تليفون أول: فاروق فى المستشفى يا أونكل.. الكبد عنده تعبان من الكحول، تليفون ثان: فاروق فى غيبوبة وحالته متأخرة.

بحاسته العملية- شخط الدكتور عزيز فى فؤاد عندما عرض أن يسافر لأخيه، وبحاسته العملية أدرك أن سنه هو لن تساعده على السفر ولا على عمل أى شىء، قال لوصفى: إعمل كُل المطلوب.. شوف أفضل حُكما مهماً صرفت.. وافضل على اتصال معايا.

تليفون ثالث: آسف يا أونكل.. البقية فى حياتكم..

هنيجى بُكرة.. هنوصل المطار واحده الضهر.

وسمع الدكتور عزيز فى التليفون صوت وصف
وصوت نادية فخرى ينهنهان، وضع الدكتور عزيز السماع
وهز رأسه، الغريب أنه لم يعثر لنفسه على دموع يريقها
صمت قليلاً ثم نادى: يا فؤاد.. أخوك مات فى بلاد بره.
وصفى ونادية جايين بُكره ومعاهم الجثمان.. عاوزين نجهز
نفسنا.

ثبتت ملامح فؤاد لثوان، ثم بدأت تتغيرّ وتتحوّ
كالطفل الذى يستوعب الأحداث تدريجياً، وفجأة انفجر فى
بكاء شديد وهرع إلى الحجرة الأخرى.

تركه الدكتورعزيز لمدة ساعتين ثم دخل عليه ، وجد
نائماً فى وضع جنينى ، أيقظه: إعمل تليفون للدكتور محسن
سعد ابن عمّى.. خليه يبلغ بقية العيلة ويتصل بالدير وياخ
إجراءاته.؟. مش عاوز نعى ولا خلافه.. تمم كل حاجة وبلغنى
أول بـــ أول.. مش عاوز أشوف حدّ.

دخل الدكتور عزيز حجرته وأغلق على نفسه الباب.

– كل حاجة حلوه بتخلص .. عايدة مشيت.. وعبد
الناصر مشى.. ولبنى خليل مشيت.. وفاروق مشى.. وانا كمان
همشى.. يا عينى عليك يا فؤاد يا بنى.. هتواجه الأيام دى
لوحدك إزّاى!؟

وهطلت دموع الدكتور عزيز كالمطر ونهنه وارتج
جسده.

فى الصيوان الكبير المضاء وقف القس بهنس يُلقى الموعظة، وكان الدكتور عزيز واقفاً فى بذلة سوداء قديمة وكرافات أسود رفيع كالدوباره يتلقى العزاء وقد تهدم وانكمش وزاد حجمه تقلصاً ونتئت عظام وجنتيه بشكل مخيف وطالت ذقنه وتشوش شعره الأبيض.

كان يقف قليلاً ويجلس قليلاً لدرجة أن أكثر من واحد من الحاضرين قال لجليسه الذى يجاوره : الراجل خلاص.. بيتلاشى.. هينتهى قريب.

الغريب أن فؤاد كان يتحرك فى كل اتجاه، يُسلمُ على الناس ويشكرهم ، لقد بهره جوّ الصيوان والأضواء والكراسى الموشاة بالقصب والشخصيات الكبيرة التى تعزّى والده- فأخذ ينظر لكل ذلك باندهاشة عظمى جعلت الموت والحزن خارج بؤرة شعوره.

فى الليل- كتب فؤاد فى كشكول خاص كلاماً كثيراً عن بلاد أوروبا الملعونة والخمر الملعون والنساء الملعونات والتابوت الملعون، وكتب: الوداع يا حبيبى يا نصير العمّال- إمضاء: ون ويك.

وفى الأيام التالية لم يفهم فؤاد أبداً سرّ نظرات أبيه إليه التى تنز حزنا واشفاقاً ، وبالقطع لم يسمع أبيه وهو يحادث نفسه: هنسيبك لوحدك!؟.. يا عينى عليك.. ياريت يا بنى تمشى معايا ونخلص.. ياريت.. الأيام هتاكلك أكل.

ولأيام كثيرة لم تنم نادية فخرى ، كانت تبكى فاروق عزيز فى صمت الليل، وتجرأت على سؤال نفسها: هل أخطأت عندما رفضت حُب فاروق؟!

أيضاً لم ينم وصفى كمال ، كان يشعل سجائره من بعضها وهو يقلبُ أوراق فاروق عزيز الأخيرة ، توقف كثيراً عند ورقة مُعنونة: ما هو السبب:

المظاهر : شيوع كلمة السلام عليكم فى التليفونات وارتداء الحجاب والنقاب والفتوى من كل من هبَ ودبَ وقراءة القرآن فى وسائل المواصلات- هى كلها مظاهر اعتزال للحياة ويأس منها.

يخطئ البعض عندما يرجعون السبب إلى تفشى العادات الخليجية ونشاط الجماعات الإسلامية، لأن الدين كان دائماً له وضعية خاصة فى مصر، الجماعات وسلوكيات الخليج هى فقط عوامل مساعدة على شيوع تلك المظاهر- الأساس والسبب هو ضياع الحلم على المستوى الفردى والعام، فما بال إمكانيات التحقيق؟!

1945

كان من الطبيعى أن تضيق عايدة بنادى فاروق، كل يوم كانت تذهب إلى النادى الأرستقراطى الذى أنشأه الملك فى الفيوم، يوصلها الدكتور عزيز بالحنطور إلى هناك عند المغرب ثم يسارع إلى عيادته ومرضاه وتألقه المهنى، يعود إليها فى العاشرة مساء ، يحتسي قهوته ويدخن سجائره البحارى ثم يصطحبها إلى البيت تمشياً.

فى النهار- وأثناء تواجد الدكتور عزيز بالعيادة أيضاً كانت تهتم بالشقة بمساعدة منه، تقمن بالكنس والمسح والغسيل والتنظيف، فقط- الطبخ كانت تقوم به عايدة بمفردها كوصية زوجها، ورغم ذلك كان ثمة وقت طويل تقضيه عايدة بمفردها فى انتظار حضور الدكتور عزيز من العيادة فى الثالثة عصراً، يتناولون الطعام وهما يثرثران، ينام ويصحو قرب المغرب فيأخذها إلى نادى فاروق.

أثناء أيام الصيف كانت عايدة تجلس فى حديقة النادى

تشُم أريج الياسمين وزهر البرتقال وتتناول العصائر وتذهب بخيالها إلى أيام الفرنسيسكان، تتذكر شقاوة سيسيل فهيم وسميحة بشارة وميمى حليم وإحسان تكلا، وجيهه المهدى وحكمت عطا الله ومحاسن وجدى.

فى البداية كانت عايدة تتضايق من جليستها العائلية، مارجريت زوجة الدكتور محسن سعد، كانت مارجريت مملة وتقليدية، بيضاء وسمينة بعض الشىء- وتقطع عليها تأملاتها الحلوة فى الزمن الماضى.

بالتدريج شعرت عايدة أنها ربما كانت تظلم مارجريت فإنها طيبة وعيونها تشبه عيون القطط الرومية الكسولة ولا ينتج عنها أى شر يذكر، وهى هكذا لن تتغير وعليها أن تتقبلها هكذا.

وعندما صارحت زوجها الدكتور عزيز برأيها هذا- ضحك بشدة وقال لها: أقولك على سرّ.. إحنا كنا بنقول على مارجريت زمان إنها زىّ المعجون الأبيض.. حاجة كده ملهاش معنى، فتأكد لعايدة رأيها وأغرقت فى الضحك، بل وبدأت تحب المعجون الأبيض.

فى الشتاء كانتا تجلسن فى الصالة الداخلية للنادى- تلك التى تمتلئ بالأنتريهات الجلدية الفخمة المرصوصة أمام المدفأة الإنجليزية الحجرية على أرضية من الباركيه اللامع- وهن يشربن القرفة بالحليب والسمسم ويسمعن على البعد موسيقى البوليس تعزف فى الكشك المخصص لها بمنتزه فاروق الملحقة

بالنادى والتى يتحلق حولها العامة.

توثقت العلاقة بين المرأتين لدرجة أن عايدة حكت لها عن صديقاتها فى الصعيد: كاميليا ذكى وكريمة محمود ورشيدة فريد وخديجة مرسى وصوفى حكيم وفيكتوريا فرج وفتحية رشدى.

بل لقد حكت لها عايدة عن المقالب التى كن يفعلنها فى مدرسة الفرنسيسكان فى السير صوفى- وكانت مارجريت تقابل كل ذلك بدهشة شديدة وبلاهة وتسأل أسئلة- من وجهة نظر عايدة- كانت مغرقة فى الغرابة مثل:

- ياشياطين.. وعملت إيه بقى السير صوفى؟!

- يعنى يا مارجو هتعمل إيه؟!.. واحدة راهبة وفى السن ده وصل لها بالبوسطة جواب غرامى.. طبعاً هتقطعه.. وهتشك فينا.. لكن مش هتقدر تثبت حاجة. وهتسكت.

- طب وإذا عرفت.. يعنى إذا عرفت أن انتوا اللى باعتينه؟!

- هتعرف منين؟!.. يكونش احنا بقى هنقول على بعض؟!

- يمكن تكون قديسه يا عايدة وتعرف حكوا لى كتير عن ناس كده.

ومن كثرة تندر عايدة بغرابة واندهاش مارجو- ومن كثرة ما تقصه من نوادرها على الدكتور عزيز- اعترضها ذات مرة:

- خلىّ بالك.. لو اتريقتى على عباد الله ممكن ولادك يطلعوا زيُّهُم.

ذلك بالضبط ما فكرت فيه عايدة أنه حدث بعد أن أنجبت فؤاد.

ففى عام 1956 وقد كان الصغير يشرح لها تفاصيل رحلة مدرسية إلى القاهرة قال إنهم فى ميدان التحرير هتفوا: عاش الرئيس جلال عبد الناصر، ومرّة أتى وهو يحمل مسدساً خشبى سدده إلى ظهر أبيه الجالس قائلاً: سلف نفسك، ومرة قال: حور محت، ومرة: توت عنك آمون، ومرة غنى: طلعت يا محلا لونها.. ووطنى بيكبر وبيتحرك.

فاعايدة لم تكن تظن أبداً أن أبنها الأول والذى أصبح طبيباً فيما بعد- ملخبط، كانت تؤكد أن هذه عبقرية لدرجة أنها تتحير أمامها، ذات حيرتها عندما سألها فؤاد عن صورة الشهيد مارجرجس.

- مين ده يا ماما؟
- الشهيد العظيم مارجرجس
- هو راح فين
- استشهد
- راح فين يعنى؟!
- عند الربّ.. طلع عند الربّ
- طب والحصان
- .....

بمرور الوقت، أوقفت عايدة علاقتها مع مارجريت عند حدود اللقاءات العابرة والثرثرات العامة والمجاملات اللطيفة ،

الوحيدة من سيدات النادى التى أكلت عايدة كانت لبنى خليل، بارعة الجمال وجذابة جداً هذه السيدة ومتناغمة مع زوجها المهندس أحمد، شىء ما جذب عايدة لها وجذبها لعايدة.

بعد أن تعرفت إليها عايدة أحبت النادى، تجرأت عايدة وعرضت عليها بعض الخواطر مما تكتبه مثل: لم أصادف قط فى حياتى شخصاً أتعبنى مثلما أتعبنى الشخصى المسمى أنا، الكسل جريمة هائلة، المدين عبد للدائن، أحلى هدية أهداها الله للإنسان هى المرأة.، الرجل نثر الخالق والمرأة شعره. ضحكت لبنى فى مجاملة رقيقة: جميل.. كويس قوى.. مجرد إن انتى عندك راس بتفكر وتحاول تكتب دا هايل.

وبتطور العلاقة فتحت لها لبنى مغاليق عالم الروائيين الأجانب، ولفتت نظرها إلى الجمال الحسى الذى يمكن أن يكون موجوداً فى أوغاد السينما، وحدثتها بصراحة عن أهمية تغيير الأوضاع فى الفراش إتقاءً للملل، علمتها التدخين وأظهرت أمامها لامبالاة بالأديان وحكت لها عن سفرها السنوى لباريس، أعدتها عايدة مجنونة ست مجنونة.. لكن حلوة ولطيفة ومثقفة.. هايلة.

تحفظ الدكتور عزيز فى رأيه عن لبنى خليل، وأخذ يلحظ زوجته ببعض الدقة، وعندما وجد أنه لم يحدث لها ثمة تغيير يذكر ولم تتمرد- صرف النظر عن الملاحظة، لم يبارك العلاقة غير أنه لم يرفضها، ولم يبح لعايدة أبداً بأن لبنى خليل مصابة بالسرطان وأن مصيرها الموت المحتم بعد عدة سنوات

قليلة- فقط عندما أشبع خبر مشاجرة لبنى خليل مع زوجها المهندس أحمد وكادت المسألة أن تصل إلى الطلاق- احتدت عايدة على الدكتور عزيز لصالح لبنى قائلة: عندها حق.. ما هو يفرس ، إربدّ وجه الدكتور عزيز: يا عايدة.. قلت لك مرة فى أول جوازنا وهكررها.. فيه حاجات نحبها ونعجب بيها.. وليها لمعة تخطف عنينا.. ماشى.. لكن نتحمس ليها أو نعمل زيها لأ.. مفهوم.. إحنا لينا حياتنا وعالمنا الخاص اللى عاجبنا ومش عاوزين حد يا خدنا منه.

تراجعت عايدة: مش قصدى يا عزيز.. أنا بس بافضفض معاك.. هى صحيح متحررة أكتر من اللازم.. لكن برضو واحدة ست وغلبانة. انتهت المناقشة والتزمت عايدة حدود المسموح به أسرياً قائلة لنفسها: ماليش دعوة، واستدركت: لكن دى صحبتى.. وست طيبة ولذيذة.

واعتبر الدكتور عزيز الموضوع منتهياً، وترك عايدة مع لبنى خليل ومارجو وسكنية هانم زوجة مأمور البندر وباقى صاحباتها من الطبقة المتميزة، وارتاح لذلك، فهو وإن كان يعتبر الأسرة همه الأول فقد كان قلق الروح، قلبه مع حكومة الوفد ويأمل فى التغيير، تغيير ما، يصنع عالماً جديداً تعيش فيه ذريته القادمة دون خوف أو قلق.

صحيح أنه قد ترقى مهنياً وذاع صيته فى كل المحافظة وأصبح حتى الطبيب الأول فيها، وكون ثروة لا بأس بها اعتبرها ظهره وظهر أولاده المادى الذى يقيهم مفاجآت

الزمن، وصحيح أنه أصبح شخصيته عامة يجالس المأمور والحكمدار ومدير المديرية فكان أول من يدعى إلى استقبالات رسمية، وشاهد النحاس باشا وسلم عليه يداً بيد، وصحيح أنه يدعى فى الحفلات الخاصة للزواج وأعياد الميلاد ورأس السنة غير أن فطرته العملية صنعت سياجاً حديدياً يمنع تجاوز النجومية الاجتماعية، وحتى تلك الأخيرة تتم فى حدود معينة رسمها هو لا يخرج عنها، وكان- عندما يثقل عليه الأمر- كأن يطالب بإبداء رأيه فى مسألة عامة- كان يهرب إلى معشوقته مهنة الطب فيتفانى فيها وينجزأ برع الإنجازات .

مرة واحدة باح فيها الدكتور عزيز بمكنون قلبه إلى زوجته عايدة، يومها قال: إحنا طهقنا من الأوضاع دى بقى.. إمتى يا رب نخلص منها؟!

- أوضاع إيه؟!.. قصدك إيه يا عزيز؟!

- مفيش حاجة.

- قصدك ع السياسة؟!

- لأ.. مالناش دعوة بالسياسة.

شكت عايدة فى إجابته لكنها اضطرت لتصديقه، يوم ان كانا يجلسان على شاطئ بحيرة قارون شاهدا عُفاراً شديداً قادماً على الطريق، بعد فترة انقشع العفار عن صف طويل من العربات الفخيمة توقف إلى جوارهم، تنبه الدكتور عزيز وهم واقفاً جاذباً عايدة لتقف مثله، هبط فاروق من السيارة الثانية يرتدى ملابس الصيد ويضع على عينيه نظارة شمس ويحمل

بندقية الصيد الثقيلة فوق كتفه- ومن حوله الحاشية.

رفع الدكتور عزيز كف يده إلى رأسه قائلاً: مولانا جلالة الملك المعظم، ويبدو أن عايدة قد فهمت ، فقد أمسكت بجانب زيل فستانها الأيمن وفردته وانحنت بعض الشيء قائلة: مولاى، انفجر الملك فى الضحك، وبعد أن هدأ ضحكة قال لهما: إزيكم، ثم إلى عايدة: إنتى ست لطيفة خالص، ومشى.

أيامها- عرفت الفيوم كلها بالقصة، وكانت عايدة تتيه- فقد تحققت كل أحلامها فى ضربة حظ، بل وقد أطراها الملك نفسه، وفى جلسة صفاء باحت لزوجها: تعرف يا عزيز.. أنا كنت فاكراك بتكره الملك.. لكن بعد موقف البحيرة عرفت إنك بتحبه ..

- آه طبعاً باحبه.. وباحب الوفد.

وقال لنفسه: قرف عليهم الاتنين.. الأولانى عيل بيبيع البلد.. والتانى خان الناس وبقى حزب الكبار.

حتى بعد 1952 ظل الدكتور عزيز متحفظاً يكتم إعجابه بالضباط الأحرار، لكن بمرور الوقت بدأت تفلت منه الكلمات فعرُف بأنه من أهم المعجبين بثورة يوليو وبالرئيس جمال عبد الناصر، غير أن هذا العسل لم يدم طويلا.

تحمل الدكتور عزيز التخفيض الأول فى إيجارات المساكن على مضض، وعند التخفيض الثانى كان الفراق، لكن احتجاجاته على هذا الظلم الاجتماعى للملاك كانت هامسة.

الوحيدة التى ناقشته علانية وقرعت الحجة بالحجة كانت لبنى خليل:

- لما ولادنا تتعلم ببلاش ويبقى لينا معاش وعندنا كرامة وطنية نحبهم.. لكن لما القرارات تقرب من مصالحنا الخاصة نزعل.

- قصدك إيه يا مدام؟!

- إنت زعلان عشان إيراد العمارتين بتوعك يا دكتور.. طبعاً انخفض خالص.. لكن لو سيادتك مجرد مستأجر كان رأيك اختلف.

- ما هو دا طبيعى إنى أزعل عشان إيرادى انخفض.

- يبقى نحكم مبدأ تحقيق العدالة الاجتماعية وتدويب الفوارق.. ولازم بعضنا يضحى.. ثم إن انت قربت تلم تمن العمارات دى.

- سيبك يا مدام من الكلام الكبير ده.

- سيبك إنت يا دكتور.. هى كده الطبقة المتوسطة.. عاوزه تلتحق بالطبقة الأعلى منها.

يومها شعر الدكتور عزيز بانه تورط فى الحديث أكثر من اللازم بكثير، همس لزوجته وقال للجالسين: عن إذنكم هنمشى. ورايا عمليات الصبح ولازم أنام، وغادرا النادى.

فى البيت أعلنت عايدة أن لبنى خليل سيئة. قالت عنهم طبقة متوسطة وهم طبقة عليا، وقررت أنها ستقاطعها، دخن الدكتور عزيز كثيراً وبان على ملامحه الحزن والهم، وهمس لنفسه: معاها حق.. معاها حق.. خسارة الست دى تموت.

فى النادى- لم تكف لبنى خليل عن الكلام وسط

الجالسين الذين بقوا، قالت:

- هى الحكاية كدا فعلاً.. حتى بنات الطبقة الأرستقراطية اللى شمسها أبتدت تغيب- اتجوزوا ضباط جيش، ما هم ضباط الجيش أصبحوا بيمثلوا المستقبل المادى والسياسى بقى.. وطبعاً الحكاية دى جت على مقاس ضباط الجيش تمام.. فرحوا بيها جداً.. بنات حلوين وأرستقراطيين.. وكل واحد من حضرات الضباط طبقة متوسطة وعاوز يعمل لنفسه امتداد تاريخى مع الأسر العريقة.. يا سلام.. مراته بتتكلم فرنساوى .. حد طايل.. دى حاجة نيله.. حتى أنا.. أنا نفسى منيله بنيله يعنى اشمعنى أنا.

هرب الدكتور عزيز إلى مهنته يجيدها ويتفنن فيها، وأصبح بإمكانه بالفعل أن يكبت آراءه وانفعالاته ، ذات مرة انفجر فى عايدة طالباً منها أن تصمت عن هذه الأمور، كانت عايدة بعد زيارة قصيرة من أخيها جورج تضرب كفاً بكف: شفت يا عزيز.. الفلاحين بقوا ملاك.. وبيعملوا راسهم براس بابا.

غير أن الدكتور عزيز لم يتمكن مطلقاً من كبت انفعالاته فى 1967، إنفجر فى بكاء حاد وعزف عن الذهاب للعيادة ثلاثة أيام، المرة الثانية التى بكى فيها بحرقة شديدة- عندما مات جمال عبد الناصر، بل أنه سافر إلى الجيزة ونظر من شرفة شقته ورأى الملايين فى الميدان تحمل النعوش الرمزية، هبط وسار وسط الناس حتى عبر كوبرى عباس- إلى

أن تعبت قدماه فعاد.

وبعد تولىً السادات الحكم وموت لبنى خليل المأساوى ركز الدكتور عزيز فى عمله فقط، وعندما سألته عايدة ذات مرة حول سبب عزوفه عن السياسة والرأى- هز رأسه: ما خلاص.. بقينا خارج اللعبة، وقال فى نفسه: الله يرحم لبنى خليل.

وفكر الدكتور عزيز: كلامها صحيح.. إحنا طبقة لازقين فى الحكومة.. حتى لمّا الحكومة طردتنا من جنتها التحقنا بخدمة حكومات تانية عرب وخواجات.. وجالنا منها الواغش كُله.

1998

كان الدكتور عزيز قد أقلع نهائياً عن العمل، أخطر نقابة الأطباء باعتزاله المهنة لكبر سنه وترك العيادة لفؤاد يستقبل بها مرضاه.

مرة واحدة هى التى غادر فيها البيت فى أوائل 1998، حصل على موافقة فؤاد بعد مشاحنات كثيرة وبعد أن قال له: إنت يا فسل هتتحكم فىّ!

- مش قصدى يا بابا.. إنت تعبان.. قول لى إنت عاوز إيه وأنا أجيبه لك.

- مالكش دعوة بيا.. هروح مصر يعنى هروح مصر.. هشترى حاجات.. مالكش دعوة بيا يا أخى.

وتدخلت العائلة ووافقوا مع انتداب عاطف ابن الدكتور محسن سعد بسيارته المريحة يذهب به ويعود به ويجعله يستريح ساعتين أو ثلاثة فى شقة الجيزة، بمجرد وصولهما إلى ميدان الجيزة أخذ الدكتور عزيز يتلفت حوله فى فزع من

الازدحام الشديد ويتعجب من الكبارى العلوية وينظر بحسرة إلى مكان سان سوسى.

- روح يا عاطف عند أى فرع من فروع شركة صوت القاهرة.

توقفا فى شارع الساحة بعابدين، هبط الدكتور عزيز وهو يتماسك بصعوبة ، دخل إلى الشركة، بعد فترة خرج وهو يحمل شنطة بلاستيكية كبيرة.

عادا إلى ميدان الجيزة، صعدا فى الأسانسير إلى الشقة، استلقى الدكتور عزيز على السرير لمدة ساعتين وشرب بعض العصائر التى كان قد أحضرها عاطف معه.

قام الدكتور عزيز، تخير بعضاً من الصور الفوتوغرافية المعلقة على الحوائط، حملها عاطف وكرا راجعين إلى الفيوم.

قضى الدكتور عزيز فى حجرته ثلاثة أيام يستريح من هذا المشوار المتعب نائماً وسط الفراش المترب، ومن حين لآخر كان فؤاد يطل عليه ويوقظه فيعطيه بعض العصائر أو علبة من الزبادى وبعض الأدوية.

تقلص حجم الدكتور عزيز لدرجة أنه عندما ارتدى بيجامته كانت أكمامها وأرجلها أطول من يديه ورجليه- وكانت تعوقه، فضلاً عن أن جاكتة البيجامة كانت متسعة عليه بدرجة مخيفة ، ارتدى فوق البيجامة جاكيت بدلة قديم وصل حتى ركبتيه فكان أشبه بالطفل.

أقلع الرجل نهائياً عن حلاقة ذقنه أو غسل وجهه وبديه، وحتى التبرز كان يقوم به مرة كل عدة أيام نظراً لأنه لم يكن يأكل تقريباً- وبمعاونة الأدوية المسهلة، ووضعوا له فى الحجرة. قصرية صاج كبيرة للتبول بها.

بمعاناة- فرد الرجل الصور الفوتوغرافية تلك التى كانت عنده بالأصل- والأخرى التى أحضرها من شقة الجيزة، لرتدى نظارته الطبية وجعل يتأمل صور عايدة وفاروق والصور العائلية التى حال لونها بفعل الزمن.

بصعوبة ضغط زر المسجل فتصاعد صوت عبد الوهاب: حن.. حن.. يا للى هجرت الروح.. ومالكش قلب يحن، فتهدأ روحه وتشرد نظرته..

كان الدكتور عزيز قد اشترى عشرات الشرائط الكاسيت لأم كلثوم وعبد الوهاب وفريد الأطرش واسمهان وفايزة أحمد وعبد الحليم ونجاة وفيروز، عبد المطلب ومحمد قنديل ونازك وأحلام ، كما اشترى شرائط الصور الغنائية التى كانت تقدمها الإذاعة ومجموعات أغانى الأفراح.

وعندما كان فؤاد يدخل عليه كان يندهش كالعادة: يا بابا.. يا بابا.. إنت كده بتعتزل الحياة.. انت معندكش رغبة تعيش هنا.. صاحبى الدكتور النفسانى بيقول حالة نستايولوجى.

يتماسك الرجل فى بطء وينطق بصعوبة بعد أن سقط طقم أسنانه الذى اتسع عليه:

- عمرى.. عمرى مبدور فى الحاجات دى.. وعاوز

اعيش فيه.. إمشى وسيبنى يا أخى.. روح لحالك.. أنا ماشى يا بنى.. ماشى.. رايح لعايدة وفاروق.

يخرج فؤاد مشفقاً على الرجل، تحولت حجرة الدكتور عزيز إلى مزبلة كبيرة أساسها التراب والنمل ورائحة العفن المختلطة برائحة البول الصادرة من القصرية الصاج، عشرات من علب العصائر ملقاة فوق المنضدة وعلى الأرض، عشرات من علب الزبادى وقد إسودت فيها البقايا، أجزاء من عظام دجاج تجمع حولها النمل فى ولائم كبيرة، قشر بيض فى كل مكان، بقايا خبز يابس وبقسماط، أطباق تعفنت فيها بقايا شربة الخضار ولسان العصفور.

حاولت العائلة بعد عدة اجتماعات نقل الدكتور عزيز إلى أحد بيوت المسنين أو حتى استئجار امرأة للنظافة والتمريض- إلا أنه رفض بشدة، رفضه الأخير كان مصحوباً بنوبة من الكحة العنيفة التى إبيض لها وجهه وكادت تودى به، الدكتور عادل زخارى الطبيب النفسى أكد على أهمية أن يتركوه يفعل ما يريد، وأن أى شىء سوف يفعلونه رغماً عنه سوف يعجل بموته فوراً.

آخر ما واجه به الدكتور عزيز العائلة: دنيتى دى اللى مش عجباكم.. أحسن من دنيتكم التافهه القذرة ، وبكى الرجل .

ولول فؤاد صائحاً: بابا.. بابا.

كان فؤاد كطبيب مدركاً طبعاً أن نهاية أبيه قد اقتربت لأن أمراض الشيخوخة تفترسه، وكان متأكداً أنها مسألة وقت

ليس إلا..

فى ذلك اليوم وقبل أن يخرج فؤاد إلى العيادة أعطاه بعض الطعام الخفيف والأدوية كالعادة واطمأن عليه- لكنه لاحظ اخضراراً فى وجهه وبطء فى تنفسه فقضى نهاره قلقاً.

عندما عاد فى الثالثة عصراً دخل إلى حجرة الدكتور عزيز مباشرة ، فوجئ به مستلق على ظهره فى السرير، صغير الحجم كطفل، منكمشاً، شاهد فؤاد بنفسه مئات من أسراب النمل تدخل وتخرج من فتحتى أنف الرجل وتغطى عينيه وتدخل وتخرج من أذنيه وفمه- فأدرك أنها النهاية وأجهش باكياً.

وللمرة الأولى أدرك فؤاد أنه قد أصبح وحيداً بالفعل- وأن عليه أن يفعل شيئاً.

الفيوم بولاق الدكرور

أكتوبر 99 ديسمبر 2000

صدر للمؤلف

1- مهر الصبا الواقف هناك.
مجموعة قصصية الهيئة المصرية العامة للكتاب سلسلة القصة العربية سنة 1990.
2- الرجل الذى حاول جمع شتات نفسه.
مجموعة قصصية دار سعاد الصباح بالقاهرة سلسلة القصة سنة 1994.
3- الأمسيات والضحك والولادة.
مجموعة قصصية الهيئة العامة لقصور الثقافة سلسلة أصوات أدبية سنة 1996.
4- رائحة النعناع.
رواية الهيئة العامة لقصور الثقافة سلسلة أصوات أدبية سنة 2000.

تحت الطبع:

الديك بن الدويك
مجموعة قصصية.

الأعمال الكامله
t.me/kotbhm

تجليات أدبية

عملت له السيدة عايدة ألبوماً خاصاً، افتتحته بصورة له وهو يرتدى الاسموكن وفى يده عصاه الأبنوس، وسيم مزجج الشارب أشبه بوغد أمريكى، كتبت تحتها: الوجيه جورج سناده مهاود.. من أعيان جرجا.. انتقل للأمجاد السماوية عام ١٩٧٤،

سخر الدكتور عزيز: «يا خسارة.. كان هيطلع دكتور»، هبّت فيه: "عزيز"، إعتذر لها الدكتور عزيز ثم قال: "على فكرة ياعايدة.. جورج مش مخلِّف صبيان.. مراته ليها التُمن.. وانتى واخواتك تورثوا مع بناته.. دا طبعاً إذا كان فاضل من ثروته حاجة".

ـ "مش عاوزه حاجة.. أسكُت.. أسكُت".

ظل فؤاد حتى بعد وفاة السيدة عايدة يؤمن بمقولتها أن خاله جورج كان مثل «كلارك جيبل» ـ أو على أسوأ الفروض مثل «أنور وجدى».

ميريت
للنشر والمعلومات

الفوتوغرافيا وتصميم الغلاف: أحمد البنا